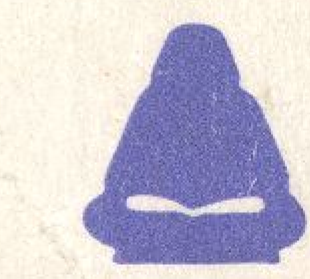
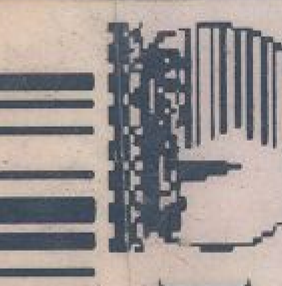
قضايا إسلامية

حديث إلى الشباب المتطرف

دكتور عبد المنعم النمر

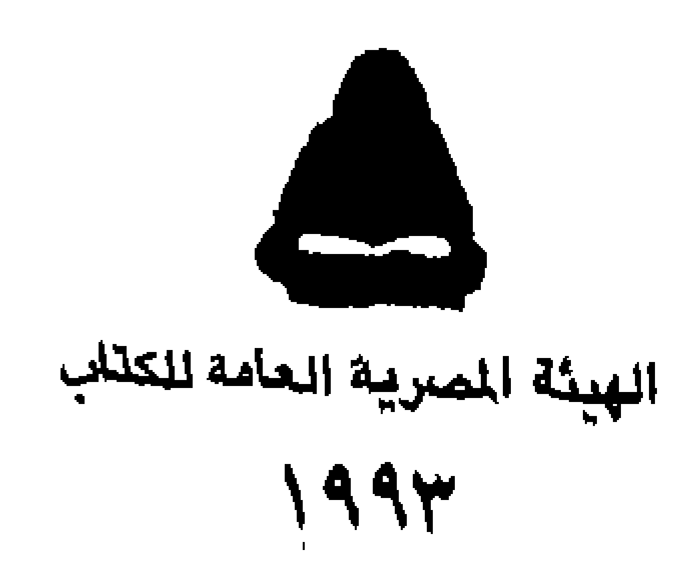




قضايا إسلامية

حديث إلى الشباب المتطرف

دكتور عبد المنعم النمر



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٣

● الاخراج الفنى

● الهام عارف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولْتكُن منكُم أمّة يدْعُون إلى الخيْر ويأمُرون بالمعروفِ
وينْهوْنَ عن المُنكَرِ وأولئِكَ هم المُفْلحُونَ ﴾
قرآن كريم

تقديم الطبعة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، ونصلى ونسلم على رسوله خير الهداة المرشدين وآله وصحبه أجمعين . .

وبعد

فهذه هى الطبعة الرابعة من هذا الكتاب ، تيسرها لكم الهيئة العامة المصرية للكتاب ، بعد تعديلات قليلة أجريتها على الطبعات السابقة من حذف وإضافة ، راجيا من الله سبحانه أن يكون لى عند لقائه ما احتسبه منها من خير لى وللقارىء ولاسيما شبابنا الذين نرجو لهم ولنا جميعا الهداية والاستقامة

وحسبى الله الذى يتولى الصالحين ،

رجب ١٤١١ هـ — د. عبد المنعم النمر

مارس ١٩٩١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاه ، واتبع هداه

وبعد

فهذا حديث القلب ونبضاته ، قلب الأب الذى يحب أبناءه ، ويحنو عليهم ، ويعمل كل ما يستطيع وفوق ما يستطيع أيضاً لتهيئة المستقبل الطيب لهم ، ويفرح ما وسعته الفرحة حين يرى أبناءه يتجهون الاتجاه السليم لبناء أنفسهم على المنهج السليم الذى يحبه الله ويرضاه ، ويصيبه الكدر حين يرى منهم أشياء تخرج على هذا المنهج ، وتعطل سيرهم ، أو تعرضهم للمتاعب .

وبمقدار ما وضعه الله فى الآباء من كنوز الحب والشفقة الطبيعية على أبنائهم ، طالبهم بأن يرعوهم ، ويحرسوا تصرفاتهم فى مسيرتهم ، ويرشدوهم باللين تارة متى كان اللين مجدياً ، وبغير اللين إذا احتاجوا لغير اللين ، وقد تكون القسوة أحياناً هى منتهى الحنو والشفقة ، كما يقول شاعرنا الحكيم .

فليقس احيانا على من يرحم   فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً

على أن الأمر هنا لا يصل إلى القسوة وإنما هى مجرد تنبيه ، ووضع نور أحمر على بعض «المطبات» حتى لا يتعثر أبنائى فى الطريق . وعلى الله قصد السبيل ومنه العون والتوفيق .

د. عبد المنعم النمر



من القلب

أبنائى . . .

نحن جيل الآباء نعمل من أجلكم ، كما يعمل الآباء دائماً نحو أبنائهم .

نحن نجاهد ونتعب ونعرق من أجلكم أنتم كما يتعب الأب ، ويكافح ويتعرض للحرمان والمتاعب من أجل أبنائه من صلبه ، نحن أيضاً جيل الآباء نعمل من أجل تمهيد الأرض وتهيئة المستقبل الطيب لكم . وأنتم أصحاب المستقبل ، ولايمكن بأى حال من الأحوال وأنتم أصحاب المستقبل أن

تتركونا نحن جيل الآباء نعمل ، وأنتم تلهون أو تلعبون ، لأننا نعمل من أجلكم ، ولا يعقل بأى حال من الأحوال أن تتركونا فى الميدان وحدنا ، مع أننا من أجلكم نعمل ، بل المعقول والمفروض والطبيعى أنكم تكونون أكثر منا حرصاً على العمل لتهيئة المستقبل لكم .

فحينما يمتد الزمن بكم ، ستكونون أنتم الذين تتولون هذا البلد ، أما نحن فقد لا نكون ، وإذا كنا على قيد الحياة ، فإننا نكون قد أدينا ماعلينا ، وننظر إليكم : كيف تعملون ؟ فمن أجل هذا أيها الأبناء نعمل دائما من أجل تهيئة المستقبل لكم ، وأنتم أصحاب المستقبل ، أنتم أصحاب المصلحة فى هذا المستقبل .

إذا عملنا الآن ، فإننا نعمل من أجلكم ، وإذا اجتهدنا الآن ، فإننا نجتهد أيضا من أجلكم .

نحن الآن قد جرت بنا الأيام نحو الغروب ، أما أنتم ففى مطلع الشمس فى مطلع حياتكم ، والزمن إن شاء الله ممتد بكم ، وأنتم الذين ستجنون الثمرة فى المستقبل ، وأرجو أن يبارك الله عملنا ، حتى تجنوا الثمرة الحلوة الطيبة من أعمالنا ، ومن اجتهادكم معنا ووضع أيديكم فى أيدينا .

أيها الأبناء نتكلم كثيراً عن بناء الإنسان أو تنميته ، لأن الإنسان المصرى الآن أو المسلم بوجه عام يحتاج إلى إعادة بناء والمادة التى أمامنا لنبنى بها الآن كالنهر الكبير فيه الماء العذب ، لكن يوجد مع الماء الكثير من الحشائش ، وأشياء أخرى كثيرة ، تحتاج إلى تصفية وتنقية ، حتى يصبح الماء عذباً حلواً صالحاً للشرب دون أى تأفف . فمجتمعنا الآن فيه سلبيات كثيرة ، والأمر لايستقيم إذا استمر الوضع على ماهو عليه لأنه لا يبشر بمستقبل طيب ، ونحن نجتهد فى أن نغير هذه الصورة ، وهذه لاتتغير إلا إذا تغير الإنسان ، تلك طبيعة الله ، وهذه حكمته ، لأن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

كثير من الناس ينظر إلى وضعنا نظرة فيها يأس ، ولكن لا يأس مع الحياة ، والذين يتسرب اليأس إلى قلوبهم ولاسيما من الشباب يحكمون على أنفسهم من الآن بالشلل ، وهم كالماء حينما ينعزل فى ناحية عن المجرى ، فإنه يتغير ويعطب ، ويصبح آسناً غير صالح لتناوله ، والشباب هم الأمل ، فالذين ينظرون إلى حالنا الآن وييأسون إنما هم الأموات ، والأمة لايمكن أن تسير بموكب الأموات ، بل دائماً تعيش بموكب الأحياء الذين يتحركون ، ويعملون ، ويغيرون ما بأنفسهم ويغيرون المجتمع حولهم .

لذلك فإننا كثيراً ما دعونا وندعو جميعاً إلى ضرورة إعادة بناء الإنسان المسلم من جديد ، بناءة بمفاهيم أصيلة ، وروح جديدة .

إن جيلنا نحن قد عاش فى ظل الاحتلال وورثنا الكثير من متاعب الاحتلال وجاهدنا كثيراً ضد الاحتلال .

والحمد لله أنتم الآن لا تذوقون المرارة التى ذقناها حينما كان يحكمنا عسكرى إنجليزى ، نحن عاشرنا هذه الحالة وشربنا المر ، لكننا ــ أيها الشباب ــ جاهدنا ولم نيأس ، جاهدنا دولة عظيمة كانت الشمس لاتغرب عن أملاكها ، وكانت سيدة العالم فى قوتها ونفوذها ، وكان فينا رجال مصريون ذوو نفوذ مستمد من نفوذها يعملون على أن تظل مصر فى أحضانها وترتبط بها ارتباطاً لاينفصم كالزواج الكاثوليكى ــ كما كانوا يقولون ــ ومع ضخامة القوة التى كانت أمامنا لم نرض عن هذا فى أيامنا وأصبنا بالغثيان والمرارة ، وقام مضحون منا ليحاربوا هذا النوع من المصريين الذين يلبسون الملابس المصرية ، ويتسمون بالأسماء المصرية وهم فى داخل أنفسهم من الإنجليز .

نعم جيل آبائكم ضحى وجاهد واحتمل الكثير ، وأنتم الآن لستم فى حاجة إلى هذا الجهاد والعناء ، البلد الآن بلدكم ،

وكل عمل تعملونه فإنما تعملونه بإرادتكم ، وتعود فائدته عليكم ، لستم فى حاجة إلى جهاد المستعمرين الذى كان دور آبائكم .

أنتم الآن لكم دور آخر ، دور إحياء البلد ، جيل الآباء خلص دولتكم وأمتكم من المستعمر ، ويشرف الآن على بناء هذه الدولة ، وهذه الأمة ، وبنائها بالشباب ، فالمسئولية عليكم الآن ، وأنتم أحرار فى بلادكم ، وفيكم عزائم الشباب ، وطموح الرجال والشباب ، أنتم الآن الذين تصنعون مستقبلكم فى هدوء ، دون أن يكون هناك من يسيطر عليكم من المستعمرين .

أنتم الذين تسيطرون على أموركم ، ولن يؤدى هذا إلى سجن يضعكم فيه المستعمرون ، فى أيامنا كان الإخلاص للبلد يؤدى إلى السجن ، أما إخلاصكم لبلدكم فإنه يجعلكم تجنون الثمرات الحلوة وللجيل الذى بعدكم ، فأنتم إذن فى زمن أحسن بكثير من زمننا ، والأبواب مفتحة أمامكم أكثر مما كانت متفتحة فى حياتنا ، وهذا يملى عليكم المسئولية الكبرى لأنكم أنتم الذين تصنعون الآن حياتكم بأيديكم فلتعملوا من أجل وطنكم دون أن يمس شعور أى واحد منكم ، لأن الرؤساء

والآباء مخلصون شرفاء ، يقودون القافلة الآن ، وهم بعد قليل يسلمون القافلة لكم لتستمروا فى مسيرتكم وفى حياتكم ، وبهذا نواجه موضوع بناء الإنسان المصرى أو تنميته من جديد .

كيف يتم بناء هذا الإنسان

لابد أن يكون لنا منهج ثابت وعقيدة ثابتة ، وأرضية قوية ننطلق منها لبناء الإنسان ، الغرب له منهجه المغاير ، والشرق الشيوعى ضد الأمة الإسلامية ، ولايريد للمتدينين خيراً ، لأنه يعمل للقضاء على الدين ، وكل إنسان متعلق بدينه لدى الشرق الشيوعى إنما هو إنسان بغيض منحرف ، فهم أعداؤنا الطبيعيون .

ونحن هنا فى مصر متدينون بطبيعتنا ، والدين فينا منذ قدماء المصريين ، حتى ان قدماء المصريين وصلوا إلى التوحيد فى عهد أخناتون ، فهذه أمة متدينة ، وإذا زرتم الآثار فى الأقصر وغيرها

تجدون أنهم كانوا يؤمنون بالبعث والحساب والثواب والعقاب ، ورسموا ذلك على جدران الآثار ، والأهرامات بنيت من أجل هذه العقيدة كما تعرفون من كتب التاريخ .

نأخذ من هذا أننا شعب متدين بطبيعته ، وكان الشعب المصرى فى أيام المسيحية يحمل لواءها ، وحينما جاء الإسلام فى بساطته وسماحته وعدالته ، أقبل عليه المصريون ، ووجدوا فيه حريتهم ، والعدالة التى ينشدونها ، فآمنوا بالإسلام وصار للإسلام فى هذا البلد أكثرية كما تعلمون .

وأصبحت مصر من أيامها زعيمة وقائدة للعالم الإسلامى فمصر موقعها الآن فى العالم الإسلامى هى موقع القلب من الجسد وهى موقع القلعة التى تحمى البلاد الإسلامية .

وأنتم الذين وكل الله إليكم حراسة وحماية هذه القلعة ، ومن غير المعقول أن الذين كلفوا بحماية القلعة ، يعملون على هدمها ، أو يعملون على تخريبها ، لايمكن للفنار الذى يشع من هنا على العالم الإسلامى ، أن تعملوا على إطفائه وتخريبه ، لايمكن لمن وكل الله إليهم رفع هذا العلم أن يتراخوا أو تكل سواعدهم ، وتضعف عن حمل هذا العلم الذى هو علم

الإسلام ، لابد بمقتضى الأمر الطبيعى والتكليف الذى شرف الله به مصر لابد أن نكون جديرين بحماية هذه القلعة ، لابد أن نكون جديرين برفع هذا اللواء .

نحن أبناء الإسلام ، نحن حماة الإسلام ، مصر التى صدت التتار والمغول ، والصليبيين .

مصر هى التى وقفت ضد الغزاة من الشرق والغرب ، لولا مصر لخرب التتار حضارة الإسلام عن آخرها ، بعد أن فعلوا بها فى بغداد ، ودمشق مافعلوا ، ولولا مصر لاستطاعت أوربا أن تقضى على حضارتنا ووجود الأمة الإسلامية هنا .

قام أجدادكم بالدفاع عن القلعة ، قلعة الإسلام مصر ، ورفعوا لواء الإسلام من هنا ، وهزموا التتار وهزموا الصليبيين وأسروا ملك فرنسا فى المنصورة ، واستطاع آباؤكم وأجدادكم أن يصدوا هذه الغزوات ليبقوا على القلعة الحصينة ويظلوا رافعين لواء الإسلام .

أنتم يا أبنائى ونحن من قبلكم ، نحن الذين نواصل رفع هذا العلم ، ولايمكن بحال من الأحوال أن نترك العلم يسقط ، فإن هذا يكون عاراً كبيراً على مصر وعلى أبناء مصر .

ومن هنا فإن من الضرورى فى بناء الإنسان المصرى أن تستعمل «المونة» الطبيعية الأصلية ، التى تربط الناس بعضهم ببعض ، والتى تستطيع أن تجعل من كل واحد منكم صاروخاً متحركاً دائماً ، هذه المونة هى الإيمان .

بناء الإنسان من الداخل إنما هو بالإيمان بالله سبحانه وتعالى ؛ بتعاليم الإسلام التى بينها الله فى القرآن الكريم ، وبينها لنا رسول الله ﷺ وأنتجت تجربتها بناء دولة إسلامية عظيمة فى وقت قصير .

كيف جعل الإسلام من العرب المتفرقين الفقراء الرعاة جعل الله منهم قادة وكونوا امبراطورية من الصين إلى المحيط الأطلنطى فى مدة قليلة من الزمن ، كان السبب فى هذا هو الإيمان الذى عمر قلوب المسلمين ، فانطلقوا بهذا الإيمان الذى شحن قلوبهم ونفوسهم شرقاً وغرباً ، فكانوا فى الحرب أبطالاً ، وفى السلم أبطالاً يحاربون فينتصرون ، ثم يعودون من الحرب فتكون الحياة والعلاقة بينهم قوية كما قدرها الإسلام ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

إذن لايمكن بحال من الأحوال أن نبنى الإنسان المصرى بدون «المونة» الطبيعية الداخلية التى جربناها من قبل ، والتى بنت

الإنسان العربى المسلم ، وجعلت منه مارداً فى الحرب ، وقوياً فى السلم والإنتاج .

كانوا يحسنون الحرب ويحسنون الحياة فى السلم ، ومن أجل هذا أقول لكم : هذه هى المونة الطبيعية للبناء ، وهى الإيمان بالله ، وهذه دعوة مصلحية ، لأن مصلحتكم فى هذا ، تصوروا مثلاً إنساناً قوياً بإيمانه ، قوياً فى خلقه قوياً فى عمله ، مراعياً الله فى سره وجهره ، تصوروا إنساناً بهذه الصورة كيف يكون إنساناً مشعاً للخير ، كيف يعمل لمصلحته ومصلحة الناس حوله ؟ وتصوروا مجتمعاً بهذه الأخلاق الطيبة كيف يعيش الناس فيه سعداء ؟ فالغاية الأولى هى مصلحتكم فى حياتكم هذه . وبعدها مصلحتكم فى الآخرة .

لابد إذن من الإيمان بالله ، بتعاليم الله ، والالتزام بخلق الإسلام ، لأن فى هذا مصلحتنا ، فإن الله غنى عنا ، لكنه سبحانه أراد بهذه التعاليم مصلحتنا ، وبين لنا فيها كل شىء ، فنحن نكون سفهاء إذا تركنا هذا الخير ، وانصرفنا عنه ، وابتغينا طريقاً من الشرق أو من الغرب . فمن واقع مصلحتنا ، ومن واقع حبنا لانفسنا ، ومن واقع حبنا لخيرنا وسعادتنا لابد أن نلتزم بهذا الطريق الذى بينه لنا الله ، لا أقول لكم التزموا لكى

تدخلوا الجنة وكفى ، لكنى أقول لكم التزموا بتعاليم دينكم لإيجاد جنة لكم على الأرض أولاً فتكون لكم الجنة فى آخرتكم .

نحن لانبيع الجنة ، ولكننا فى شوق لكى نحقق الجنة لنا ولكم على الأرض أولا قبل أن نفوز بها فى الآخرة بعد أن نموت ، ومن حكمة الله سبحانة وتعالى أنه جعل الجنة فى الآخرة مرتبطة بالجنة فى الدنيا للمؤمنين ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ـ أى فى الدنيا ـ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل : ٩٧] .

الجنة ليست للمتخلفين ، ليست للمنحرفين ، وليست للضعفاء الخائنين ، إنما الجنة للعاملين المتقين الذين يحسنون أعمالهم ، ويحققون لهم فى الحياة الدنيا جنة يسعدون بها ، ثم قرر الله لهم جائزة إذا أفلحوا فى الدنيا فى إيجاد الجنة لهم ، قرر الله لهم جنة فى الآخرة أحسن من جنتهم ، وقرر لهم سعادة أعظم من سعادتهم ، فالذين يحققون لأنفسهم السعادة فى الدنيا بالخلق وبالإيمان وبالعمل ، يعطيهم الله جائزة فى الآخرة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

هكذا ربط الله سبحانه وتعالى بين الجنّة فى الدنيا والجنة فى

الآخرة ، وقاعدة الاثنتين واحدة هى : الإيمان بالله والعمل الصالح الطيب ، فمن يصلح دنياه بالإيمان والعمل يسعد فى الآخرة . هذه هى القاعدة الإسلامية ، إن الله سبحانه وتعالى جعل الآخرة جائزة لمن يحسن العمل ويتقنه فى الدنيا ، هذه هى نظرة الإسلام للدنيا والآخرة ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا ﴾ [الكهف : ٣٠] ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أوأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ـ وتلك هى جنة الدنيا ـ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [سورة النحل : ٩٧] (أى جنة فى الآخرة

الإسلام هدفه تكوين الفرد وإيجاد المؤمن القوى «فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍ خير» .

على هذا الأساس نريد بناء الإنسان المصرى الجديد ليحول التخلف إلى تقدم ، والضعف إلى قوة ، ونسير فى حياتنا كما يسير عباد الله فى جميع أنحاء العالم وأحسن .

تعرفون أن مصر بدأت نهضتها حديثاً حينما بدأت اليابان نهضتها ، وحين نهض محمد على بمصر أرسلت اليابان بعثة منها لتعرف كيف نهضت مصر وقويت جيشاً وصناعة وعلماً ولكن

انظروا إلى الفرق بيننا الآن وبين اليابان ، فقد أصبحت اليابان عملتها أغلى ، وصناعتها أقوى وأروج ، حتى إن صناعتها تغزو أمريكا وأوربا ، فلماذا وصلوا ونحن واقفون ؟ حقيقة نحن أصبنا بالاستعمار الذى خرب النفوس وأبعدها عن الدين ، وعن وسائل بناء الإنسان ، واستورد لنا المفاهيم والمثل الغربية ! وذهب بعض أبنائنا إلى أوربا ، ودهشوا مما رأوه وأعجبوا به ، وعادوا ليتبنوا الكثير من هذه المظاهر والأفكار الغربية ، ومن هنا بدأت تقاليدنا ومثلنا تهتز ، والشرق الشيوعى جاء إلينا لكن الله نجانا منه بفضله ثم فضل الرئيس محمد أنور السادات حينما طرد الخبراء الروس وألغى المعاهدة التى كانت بيننا وبينهم ، ودعا إلى العلم والإيمان وهذا — فى نظرى — أكبر تحول فى تاريخ مصر الحديث بعد أن كادت تنحدر نحو الشيوعية تماماً . صحيح أن اليابان لم تؤمن بالله ولكنها بنت نفسها بإيمان الشعب ببلده وتقاليده ، والايمان بالله يدفع أكثر من هذا لو تغلغل فى النفوس . .

حينما زرت بعض الدول الأوربية ورأيت حبهم لعملهم ، وإتقانهم له ، والمحافظة على كل دقيقة . . قلت لنفسى : لماذا لم ينقل لنا أبناؤنا هذه الأمور الطيبة ونقلوا لنا المفاسد وتركوا

المحاسن ؟ كيف نأخذ المفاسد ونترك المحاسن ؟ هل يمثل هذا نبني شعباً ونقيم أمة ؟ إذا اعتمدنا حتى على التقليد ، ولم نلتفت إلى أصولنا ؟ .

إن سبب تقدم الغرب تمسكهم بتقاليد العمل الجيد ، تمسكهم بالأخلاق التجارية التى هى أخلاق الإسلام الدينية ، الغرب فى القمة ، ونحن فى السفح ننظر إلى أعلى . . . ولايمكن أن تبقى أمة بهذا الوضع . لاسيما إذ كان لديها «دينمو» يمكنها به أن تصعد إلى أعلى . . وهو «دينمو» الإيمان ، ومنهج القرآن . تستغنى به عن أى حافز ومحرك . . .

«لا يكن أحدكم إمعة يقول إذا أحسن الناس أحسنتُ ، وإذا أساءوا أسأت ، لكن وطنوا أنفسكم أن تحسنوا إذا أحسن الناس وإذا أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم» هذا هو الإنسان ذو الشخصية الإيمانية المرتبطة بالله و بإيمانه كما يوجهنا رسول الله .

فى مجتمعنا الآن تطلع ، وتطلعاتنا أكبر من واقعنا ، وآمالنا الآن أكبر من حجمنا لكن هكذا الدنيا ، الآمال دائماً أكبر من الحقيقة ، الآمال تلهب عزائمنا للعمل والوصول إلى الهدف . ولولا الأمل لخاب العمل . . .

نحن نحتاج إلى شباب قوى بإيمانه وعزائمه ، ونجد بعض

الشباب منحلاً وضائعاً ومستهتراً يعيش ليومه ، ولا يعرف ما يأتى به الغد ؟ ويعتبر التدين والاستقامة تأخراً ، وهؤلاء منعزلون عن روح أمتهم ، منبوذون منها . عالة عليها .

وفى الوقت نفسه نجد بعض الشباب مغالياً فى إيمانه ، متطرفاً فى تفكيره ، نحن حقيقة فرحون بهم لاندفاعهم نحو الدين ، لأن أغراضهم طيبة ، وإن كانت بهم بعض أمور تحتاج إلى تصحيح ، والخطر أنهم يفهمون بعض أمور الدين فهماً خاطئاً ، فهم فى حاجة إلى إصلاح وتصحيح ، عيبهم المغالاة والتطرف . وقديماً قيل «حب التناهى شطط ، وخير الأمور الوسط» وهذا هو مايرشدنا إليه ديننا ﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾ أى وسط بين التقتير والإسراف .

ذهب رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه سيدنا معاذاً لإطالته فى الصلاة ـ فجمع رسول الله ﷺ صحابته وقال : أيها الناس إن منكم الفتانين . هذا هو الأدب الإسلامى الذى يعلمنا الرسول إياه لم يذكر اسم سيدنا معاذ ، ولم يخزه أمام الناس ، وكانوا فتانين لإطالتهم فى الصلاة ، فيكره الناس الصلاة وراءهم فى جماعة على الأقل .
والرسول ﷺ هو الذى علمنا أن خير الأمور الوسط ، وقال :

«إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» وهو مثل لرجل يكره دابته على السير فى الصحراء ، ليصل بسرعة ولا يعطيها راحتها فأماتها ، وقعد دون أن يصل لما يريد وهذا قريب مما نقوله الآن : إذا أردت الوصول بسرعة فسر على مهل حتى لاتتعطل سيارتك . وقد أراد جماعة من الصحابة المغالاة فى العبادة ، والتقرب لله فقال أحدهم إنى أصوم الدهر والثانى قال إنى أقوم الليل والثالث قال إنى أعتزل النساء .

فهل بمثل هذه الصورة يقوم المجتمع الإسلامى لو سلك الناس هذا المسلك ؟

ولذلك أجابهم الرسول ﷺ «إننى أصوم وأفطر وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى ، فليس منى» ونزلت الآية الكريمة تؤكد هذا المعنى فى قوله تبارك وتعالى ﴿يأيُّها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين﴾ [المائدة : ٨٧] . فسمى عملهم هذا اعتداء ، مع أنه عبادة ، لأنه اعتداء على تعاليم الدين المعتدلة ، واعتداء على المجتمع ، إذ لايقوم مجتمع ولاينهض ويحقق مصالح حياته ، بأفراد من هذا النوع المتطرف.

فالمغالاة إذن ليست مطلوبة ولو فى العبادة إنما التوسط هو المطلوب .

أما بالنسبة للزى ــ زى المرأة فى الأسلام ــ فقد أباح الدين للمرأة كشف الوجه واليدين فحسب وتستر باقى الجسم ، وأمرها بذلك فى الحج بحيث لو خالفته فإنها تدفع فدية فالمغالاة والمطالبة بغير التوسط على أنه واجب تصوير للإسلام بصورة غير صحيحة ومبالغة غير محبوبة .

لقد رأيت بعض شباب الجامعات يمسكون العصى الغليظة يتكئون عليها ، فسألت أحدهم عن سبب ذلك قال : كما كان يفعل رسول الله ﷺ !! . كأن هذا الشباب قد فعل كل شيء فى الدين ولم يبق إلا هذه العصا الغليظة !! فهل أكل ما يأكله الرسول ، وهل ينام على ما كان ينام عليه الرسول ؟ وهل ، وهل ، حسن ونيّات طيبة نعم . . ولكننا لانريد التركيز عليها وترك ما عداها . . نحب من شبابنا المتدين مع حبنا له وعطفنا عليه أن يترك المغالاة والتطرف ويحرص على الاعتدال ، وعلى الكلمة الطيبة الحسنة ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ ، إن التطرف سيىء سواء أكان إفراطاً أو تفريطاً ، وخير الأمور الوسط .

هذه هى بعض الأمور التى أحببت أن أحدثكم عنها ولا أحب أن أطيل ، وأرجو إن شاء الله أن تستقبلوا أيامكم القادمة مجتهدين فى تحصيل العلم ملتزمين بتعاليم ديننا واضعين نصب أعينكم أنه لايمكن أن ننهض إلا إذا التزمنا بالأخلاق وتعاليم الدين ، أما الاستهتار فلا جدوى منه إلا الضياع ، وأما المغالاة فإنها منفرة . . .

إن الشخص المؤمن الملتزم بالتوسط ، محبوب من والديه ومجتمعه . ومحبوب قبل ذلك وبعد ذلك من الله .

أبنائى هذه نصيحتى لكم ، أرجو أن تضعوها نصب أعينكم وأن تعملوا للدينا من خلال الدين ، فمن أراد الدنيا فعليه بالدين ، ومن أراد الآخرة فعليه بالدين .

والتوسط هو لب الدين ، وهو سمة الإسلام ، وهو المقبول لدى العقول والمحبب لدى القلوب . . ونحن نريد جذب العقول والقلوب إلى الإسلام وتعاليم السماء . نريد أن تكونوا عوامل جذب للدين ، بخلقكم الطيب ، وتصرفكم المعتدل ، وعدم الخشونة فى التفاهم حتى مع الخصوم ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ وقد

قال الله لموسى وهارون عليهما السلام حين أرسلهما إلى فرعون الطاغية : ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ لماذ ؟ ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ لأن القول اللين الهادىء يمكن أن ينفذ للنفوس بهدوء ، دون إثارة ، ورد فعل سيىء .

ولقد كان من حرص الرسول ﷺ على عدم إثارة الخصوم أنه يقول لهم كما حكى القرآن : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ [سبأ : ٢٤] .

والرسول متأكد أنه على الهدى ، ولكنه لم يقل لهم مباشرة . أنتم على الضلال وأنا على الهدى . بل جاء بالعبارة العائمة حتى لايسارعوا بالهيجان عليه واتهامه ، بل أتى بالعبارة التى تجعلهم يهدءون ويفكرون . . فانظروا إلى هذا الأدب النبوى ، وإلى ما يسارع به بعض الشباب من مواجهة زملاء لهم أو أساتذة باتهامهم بالكفر ، مما يثير البغضاء والمعارك والعداء . .

د. عبد المنعم النمر



حقيقة لابد من معرفتها

إن كتب التراث عندنا حوت كثيراً من الآراء : المعتدلة والمتطرفة ، وفيها الكثير أيضاً من الآراء والأقوال الشاذة الخارجة عن جادة الحق والصواب ، وتاريخ الفكر الإسلامى حافل برجال لهم أفكار وأقوال تحمل طابعهم ونواياهم ، الحسنة منها والسيئة ، المخلصة منها والمغرضة ، والقارىء الفطن لهذه الكتب يستطيع أن يميز بين الخبيث والطيب ، لو كان إنساناً معتدل الدين والفكر ، لكن بجوار ذلك يستطيع الإنسان المغرض ، الذى له اتجاه خاص ، أو غرض ومرض خاص ، أن يبحث فيها حفلت به هذه الكتب ، وحملته بين صفحاتها ، فيجد

فيها بعض الأقوال الشاذة التى يمكن أن يستند عليها ، ويقول : قال فلان . والله يعلم ما قيمة هذا الفلان وما نواياه ، وكيف صدرت عنه هذه الأقوال ؟ .

فالتراث عندنا كالنهر الجارى الكبير يحمل ماءه العذب ، ولكنه يحمل مع هذا الماء ، أو يحمل هذا الماء الكثير من الشوائب التى تلوثه ، وتعكر صفوه ، فيحتاج الشرب منه إلى تنقية وتطهير .

ولكننا بحمد الله نجد فيه الرأى المعتدل والصواب ونعرفه ، ونتمسك به ونسير عليه مادمنا لانحمل غرضاً ولا مرضاً ، ومادامت وجهتنا سليمة ، ونفوسنا صافية ، وعقولنا متزنة ، تفرق بين الغث والثمين .

وعلى سبيل المثال نجد فى تفسير الطبرى وهو أول تفسير واف وموسع ومعتمد على الآثار والأقوال المروية ، نجد فيه الكثير من الروايات التى لايقبلها عقل سليم ، بل نجد فيه الروايات المتناقضة عن صحابى واحد ، نجد فيه ما جمعه الإمام الطبرى مما يتناقله الناس فى عصره من أقاويل وإسرائيليات ، دون التعرض لفحصها ، وبيان سليمها من مغشوشها وترك ذلك للقارىء . فهو يمثل ــ كما قلت ــ النهر فى فيضانه يحمل مع مائه ؛ الكثير مما

يمر عليه ، أو يلقى فيه ، لكنا نجد بجوار ذلك الرأى المعتدل من قول الإمام الطبرى نفسه حين يقول : قلت أو قال أبو محمد .

ويمكن لأى إنسان أن يغتر بما يرويه الإمام الطبرى من منقولات ، ويأخذ بها كلها أو بعضها حسب هواه أو حسب قدرته العلمية ، ويقول إننى آخذ ذلك من تفسير الطبرى ، ويخدع المستمعين أو القراء بهذه النسبة ، وأكثرهم لايفحصون ولايمحصون ، وإنما ينخدعون ويستسلمون ، فتمتلىء أدمغة الناس بأفكار وخرافات وأقوال بعيدة عن الصواب ، ولاسند لها إلا مجرد أن وضعها الطبرى وجمعها من ألسنة الناس على علاتها . وساهم عليه رحمة الله ــ وبدون قصد ــ فى حشو أدمغة الناس ــ حتى بعض المفسرين أنفسهم ــ بالاسرائيليات والخرافات والأقوال المدسوسة التى لاسند لها ، لأن منهجه فى وضع تفسيره كان جمع كل مايتردد على ألسنة الناس فى عصره متصلاً بآية من الآيات ، تاركاً تمحيص ذلك لغيره ، ثم يتخلص من العهدة بتدوين رأيه هو أخيراً .

فمن الناس من يعمد إلى رأيه الذى انتهى إليه ، ويفضله على غيره مما ذكره من الروايات لو خالفها ، ومنهم من تستهويه الروايات الغريبة فيقف عندها ويشيعها .

وهذا مثل أضعه أمامكم من كتب التراث حتى لاتظنوا أن كل ما كتب فيها صحيح ، ويمكن الاعتماد عليه .

ومثل آخر ؛ وهو مثل صارخ لأنه يوقعنا فى لبس فى عقيدتنا المتصلة بالقرآن وبالرسول :

فقد أورد الإمام السيوطى فى كتابه «الإتقان فى علوم القرآن» قولاً من الأقوال حول نزول القرآن ، ومفاده أن القرآن نزل بالمعنى على رسول الله ، والرسول عبر عنه من عنده بألفاظه هو !! ومع جسامة هذا القول وخطورته على إعجاز القرآن الذى أنزله الله ، وتحدى البشر أن يأتوا بسورة من مثله وعجزوا ، لأنه كلام وأسلوب الله لا كلام ولا أسلوب محمد ، ولا أحد من البشر ، أقول مع هذه الخطورة . ومع أنه قول شاذ إلا أنه موجود فى كتاب إمام من أئمة الدين والتفسير وغيره ، ويمكن لمجادل أو لأى إنسان أن يقول به ، ويحاجج المخالفين بأنه وجده فى كتاب «الإتقان» ، وفعلاً وجدنا واحداً من المسلمين فى الهند ومن زعماء الإصلاح الإسلامى ـ كما يقال ـ يعتمد هذا الرأى ، ويأخذ به ويجادل العلماء بأنه وجده فى كتاب «الإتقان» ويشيع فى المسلمين البلبلة والاضطراب .

وتجد كتب التراث تحوى آراء المتطرفين فى الدين كالخوارج ،

وهم لاعيب فيهم ، لا فى تدينهم ولا فى إيمانهم وشجاعتهم ، ولكن كان عيبهم أنهم يتطرفون فى بعض آرائهم ، ويغالون ، فيكفرون المسلمين ، ثم لايكتفون بذلك ، بل يعمدون إلى قتلهم ومحاربتهم كما قاتلوا الإمام عليًا ، لأنهم كفار فى نظرهم ، حتى أصيبَ الإسلام والمسلمون منهم بشر مستطير ، ولأن الآراء الغريبة المتطرفة لايكتب لها ولا لأصحابها البقاء ، لأنها منافية لطبيعة الإسلام الوسطُ المعتدل ، فقد انتهوا وانتهت آراؤهم من المجتمعات الإسلامية ، لكن بقيت بعض آرائهم فى كتب التراث كتاريخ ليسقط عليها بعض ذوى الأمزجة فيعتنقوها ويحاسبوا الناس بها !! .

فإن الممكن أن ترضى هذه الآراء أمزجة قوم يحبون التطرف والمغالاة لسبب من الأسباب ، فينبشوا على هذه الآراء التى اندثرت ، واندثر أصحابها ويعتنقوها ويشيعوها ، ويقولوا : إننا وجدناها فى الكتب ، ويحدثون فى مجتمعهم ولوشيئاً مما أحدثه الخوارج فى أيامهم من الاضطراب وسفك الدماء !! .

لقد وصل الخوارج فى مذهبهم وأفكارهم وتصرفاتهم إلى حد أنهم لم يحترموا دماء المسلمين وأموالهم ممن يخالفونهم فى الرأى ، لأنهم اعتبروهم كفاراً . بينما احترموا دماء المشركين وأمنهم لأنهم

وجدوا آية تقول ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لايعلمون﴾ [التوبة : ٦] .

حتى اضطر بعض علماء المسلمين وأئمتهم حين وقعوا فى يد هؤلاء الخوارج ، وعرفوا أنهم إذا قالوا لهم إننا مسلمون وقالوا أسماءهم اعتبروهم كفاراً وقتلوهم ، لأنهم من أنصار أعدائهم أعداء الخوارج ، اضطر هؤلاء العلماء المسلمون أن يلجئوا لحيلة للنجاة بحياتهم ، فقالوا لهم : إننا مشركون نستجيركم ، فأجاروهم ، ولم يقتلوهم ، عملاً بنص الآية ، وعرضوا عليهم الإسلام ، فلم يستجيبوا لهم ليمثلوا الدور كاملاً ، وكانوا فاهمين بالطبع ، فقالوا لهم بقى نص فى الآية نطالبكم به ، وهو قوله تعالى ﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ ليضمنوا حراستهم وتأمين حياتهم من خوارج آخرين فى الطريق ، حتى يصلوا إلى بر الأمان . فاستجابوا لهم ، وعينوا حرساً لهم يحرسونهم ، حتى يصلوا لما يريدون . . وبهذه الحيلة نجا هؤلاء العلماء المسلمون من القتل على أيدى الخوارج !! .

مثل هذا تذكره كتب الفرقعن الخوارج ، وكيف وصلوا فى تعنتهم وإهدارهم لدماء المسلمين المخالفين لهم فى الرأى إلى هذا

الحد !! إذ يكفى لقتلهم أنهم ليسوا بخوارج أمثالهم ، بينما يتصرفون مع المشركين على هذه الصورة !! .

ومن العجب أنك تجد أنهم فى تصرفهم هذا ملتزمون بآراء دينية يلتمسونها فى القرآن والسنة ، ويخلصون لها كل الإخلاص ، ويتمسكون بها تمسكاً حرفياً . . . وقد سالت دماء الآلاف من المسلمين بسبب مذهبهم وتصرفهم ، وظلوا مدة طويلة شوكة فى جنب المجتمع الإسلامى ، حتى أذن الله بانتهاء شوكتهم ، وباندثار مذهبهم اللهم إلا فى الكتب التى تعنى بجمع مثل هذا . . .

ولقد وجدنا ونجد نماذج بيننا لاسيما فى الشباب من نوع هؤلاء المغرمين بالشاذ المندثر من الآراء فيعتنقونها لسبب من الأسباب ، نفسى أو غير نفسى ، ولو أنهم اكتفوا بالإعجاب بهذا الرأى أو ذاك ووقفوا عند هذا الحد ، لقلنا لهم : أنتم أحرار فيما تعتنقون ، وأمركم إلى الله فى ذلك ، ولكنهم تجاوزوا هذا إلى

حد أنهم نصبوا من أنفسهم قضاة يحكمون على الناس بالكفر ، ونصبوا من أنفسهم سلطة تنفذ هذا الحكم ، وتقتل المسلمين كالخوارج !!! معتقدين أنهم بذلك ينفذون حكم الله ، وأن لهم

ثواباً على ما أهدروه من دماء المسلمين !! وهذا هو الخطر الأكبر .

وجدنا طالباً يتجمع حوله بعض إخوانه يتعرض لمحافظ لإحدى المحافظات ، وهذا المحافظ معروف عنه للعام والخاص وعند المسئولين وغير المسئولين ، ومن الطلاب أنفسهم ، معروف عنه غيرته الدينية ، ومعروف عنه نشاطه فى تدعيم الحركة والروح الإسلامية فيتعرض هذا الطالب للمحافظ ، ويسأله من أنت ؟ وهو يعرف تماماً ، فيتعجب المحافظ ويقول له : ألا تعرفنى ؟ أنا فلان . . فيقول له : نعم ، أعرف أنك فلان ، ولكنك محافظ ، وموظف فى الحكومة ، فتكون كافراً !! هكذا بكل سهولة ؟ !! ومثل هذا الطالب المندفع لو كان فى إمكانه تنفيذ الحكم فى هذا المحافظ الكافر لنفذه !! .

خلط رهيب وفكر خطير!!!

ومن قبل نفذ جماعة من أصحاب هذا الفكر المتطرف حكم الإعدام والاغتيال لعالم من أفضل علماء المسلمين ديناً وخلقاً لا لشىء إلا لأنهم وجدوه يخالفهم فى رأيهم !! مجرد خلاف فى

الرأى !! وعز علينا أن يذهب الشيخ الجليل ويذهب معه بعض الشباب الذين اغتالوه . . وهو المرحوم الشيخ محمد الذهبى الذى زاملته فى الحياة من السنة الأولى الابتدائية فكان خير من عرفتهم فى حياتى علماً وخلقاً عليه رحمة الله .

ونجد من يلتمس الصحة لمثل هذا التصرف من بعض الآراء المتناثرة فى الكتب ، مهملين كل آية وحديث ورأى يخالفهم .

لقد عاب القرآن على بعض الصحابة قتلهم لجماعة جاءوا إليهم وألقوا عليهم السلام ، فتأول الصحابة فى هذا الموقف ، ظانين أن إلقاءهم السلام إنما هو لمجرد حماية دمائهم ، فقتلوهم فنزلت الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ [النساء : ٩٤] .

عاتبهم الله وخطأهم على قتلهم لهؤلاء بعد أن قالوا لهم : السلام عليكم ، وكانوا كفارا ذهب الصحابة لقتالهم فأقبلوا على قائد الجيس المسلم مستسلمين مسلمين ، وقالوا له ولأصحابه تحية الإسلام : السلام عليكم . . مجرد السلام اعتبره الله كافياً

فى حقن دماء من يقوله ، فما بالنا إذا وجدنا مسلماً يؤدى فرائض الله ، بل ويدعو الناس إلى الله ، كيف نقتله لمجرد أنه خالفنا فى الرأى ؟ ! هذا شىء خطير . . ولو فتحنا هذا الباب لفتحنا لكل إنسان وأبحنا له أن يقتل مخالفيه فى الرأى يكفرهم ويخرجهم عن دين الإسلام ، ثم يعدمهم !! كيف يستقيم الحال ، ويستقر المجتمع ، وكيف يقال ظلماً للدين : إن هذا هو حكم الدين . وكيف يقبل أحد الدخول فى دين هذا حكمه ؟ .

لقد قال رسول الله ﷺ : **«من كفّر مسلماً فقد كفر ، ومن رمى مسلماً بكفر فقد باء به أحدهما»** .

ووجهنا إلى الا نرمى مسلماً بكفر إلا أن نرى منه كفراً بواحاً أى ظاهراً ، وأنه لايكفر المسلم بذنب ارتكبه مادام يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقر المبادىء التى جاء بها الإسلام ولا يجحدها وإن لم ينفذها عملياً .

ومن لم يحكم

ومن الضرورى أن أبين فى هذا الصدد أن الذين يتخذون من قول الله **﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾**

أن الحكم بالكفر لايكون إلا على من يجحد حكم الله ويستنكره ، أما إذا لم يستنكره ولم يجحده ، وإنما تكاسل أو أهمل فى تنفيذ أحكام الله مع إيمانه بها فإنه لايمكن تكفيره ، وإن أمكن أن نعده عاصياً . . ولهذا قال بعض أجلاء المفسرين بحق ، إن الكفر فى الآية لمن جحد ، والظلم والفسق لمن آمن بها وأهمل فى تنفيذها .

وحينئذ لايمكن الحكم بالكفر على رجل أو حكومة ينفذ أو تنفذ بعض أحكام الله ، ولكنه يهمل أو تهمل وتؤجل بعضها مع إيمانها بها لسبب من الأسباب .

وهناك أمام المسلم مع الإقرار بإسلامه ذنوب كبيرة وصغيرة يحاسبه الله على ما شاء سبحانه منها وحديث الرسول أمامنا «يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» أى بعد حسابه على ذنوبه إن شاء الله ذلك ، ثم يكون مصيره إلى الجنة والجنة لايدخلها كافر . . .

وهذه الذنوب الكبيرة تكون بفعل الكبائر كالزنا والربا وعقوق الوالدين ، أو إهمال الصلاة والصوم والحج والزكاة من الفرائض على سبيل المثال لا الحصر . . . .

فالمسلمون الأفراد الذين يرتكبون مثل هذا . هل نقول

فيهم : إنهم حكموا أو خضعوا لما أنزل الله أو تحاكموا إليه ، وهل نفذوا حكم الله ؟ لا . بل هم مقصرون ، إما بارتكاب الكبائر ، أو بإهمال الفرائض والواجبات ، والله سبحانه لم يقل هو ولا رسوله عن هؤلاء إنهم كفار ، بل قيل عنهم إنهم مسلمون عاصون ، مختلفو النسبة فى درجة عصيانهم ، والله سيحاسبهم ، ويوفيهم جزاءهم ثم يدخلهم الجنة . وبهذا جاء القرآن وجاءت السنة . . ومن قال بغير هذا فقد انحرف عن الجادة والاعتدال وخالف القرآن والسنة .

وقد يكون من العجب أن بعض هؤلاء المتطرفين الذين يحكمون على الحكومة أو الأفراد بالكفر لتركهم ما أنزل الله ، هؤلاء أنفسهم يتركون ويهملون أحياناً بعض ما أنزل الله من أحكام ، إذ ليس فينا معصوم ، فماذا يقولون عن أنفسهم ؟ وبماذا يحكمون ؟ هل يحكمون على أنفسهم بالكفر ، واستحقاق القتل ، وإباحة أموالهم ؟ ! إن معنى هذا ألا يكون على وجه الأرض مسلم ، لأنه لايوجد على وجه الأرض معصوم بعد الأنبياء .

إن بعض هؤلاء المتطرفين المكفرين للناس بحجة أنهم تركوا ما أنزل الله ، يسيء إلى والديه ويسبهما ويعصيهما بل ويكفرهما

ويرتكب هذا الذنب الكبير فى حق والديه ، مع أن الله أوصانا أن نحسن التصرف مع الوالدين المشركين ودفع شرهمابالمعروف ، لو اجتهدا أن يردونا إلى الكفر ، وارتكبوا معنا هذا التصرف الذى يمقته الله ، يقول الله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما ، إلى مرجعكم ﴾ [العنكبوت : ٧] وفى سورة لقمان ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه . . . ﴾ إلى أن يقول : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾ [لقمان : ١٥] .

فهل الذى يسىء للوالدين بالقول والتصرف ، ، ويكفرهما مع أنهما مسلمان يكون قد عمل بما أنزل الله ؟ وماذا يكون الحكم عليه فى نظر نفسه ؟ هل يعتبر نفسه كافراً ؟ أو يتحايل ويلتمس التأويل ليبرر تصرفه ؟ . . .

لا . . لا . . ليس هذا هو التصرف المتزن المعقول ، وليس هذا هو طريق الإسلام السليم .

إنما هو تطرف وشذوذ ، إن حلا لبعض الشباب ، فهو غير حلو فى منطق الدين ومنطق الحياة ، فالحياة لا تسير بالتطرف ،

ولا باعتناق الآراء الشاذة ، ولكن بالاعتدال والتوسط الذى جاء به القرآن .

ونحن لانحبذ أبداً الخروج على الدين ، سواء كان بالإهمال ، أو بالمغالاة والتطرف فالمغالاة والتطرف من جانب ، سيقابله تطرف ومغالاة من الجانب الآخر . سواء أكان فرداً أم أفراداً أو حكومة تحرص على هيبتها واستقرار الأمن فى حكمها . . . وقد تركب الصعب ، وترتكب ما لا تريده ولا توده فى سبيل إقرار هيبتها واحترام سلطتها وإقرار الأمن فى مجتمعها ، وإذا وجدت من الجانب الأخر تطرفاً وتعنتاً ، فإنها تلجأ إلى التطرف والتعنت أيضاً من جانبها وفى يدها القوة التى تفعل بها ذلك . وليس هذا ولا ذاك من مصلحة الأمة فى شىء ، وقد نصل بطريق الدعوة الهادئة وبدون عبث أو تجاوز للحد إلى ما لا يحققه لنا التطرف . . .

وهكذا علمتنا أحداث الحياة التى مرت بالتاريخ ، ومرت بنا ونحن أحياء علمتنا : أن التطرف يولد التطرف من الجانب الآخر ، والتعنت يولد التعنت ، وأن الخطوة الواسعة فوق قدرة الإنسان ، قد توقعه فى النهر أو فى الترعة ، أو القناة ، ويقع فى المهالك وتسوء العاقبة .

تحدثت مع أمير جماعة إسلامية بإحدى الجامعات عن حادثة وقعت فى مدينتهم الكبيرة وأنا أعاتبهم وأشفق عليهم وعلى دعوتهم من هذه التصرفات ، تحدثت معه عن شاب يطلق لحيته ، ويظهر عليه انتسابه للجماعة الإسلامية ، وتعرض لموظف يسير مع زوجته أو ابنته على كورنيش المدينة ، وأخذ يسائله باسم الإسلام : لماذا تمشى مع هذه ؟ ومن هى ؟ الخ . وأدى هذا التصرف إلى الاشتباك بينهما وهو شيء منتظر ــ فطعن الشاب هذا الموظف بسكين .. وكانت حادثة اعتداء تولتها النيابة !! والمصير معلوم .

سألته كيف يحدث هذا من أحدكم ؟ أبمثل هذه العقلية وهذا التصرف تسيرون ؟ وتدعون للإسلام ؟ وإلى أين المصير إذن ؟ . .

فاستنكر أمير الجماعة هذه الحادثة ، وتبرأ منها ومن فاعلها . . . ومع ذلك صدقته أنا لثقتى المفروضة فيه ، فمن الذى يصدقه غيرى ؟ أليس شاباً ملتحياً عليه مظهر الجماعة الإسلامية ؟ وعلى كل حال فهى حادثة تطلق صفارة الخطر عليكم . . .

ورأيت أن أحذره من الشيوعيين الذين يضعون فى تخطيطهم

الظهور بالإسلام والتعصب له والمغالاة فيه ، فى بعض الأوساط الدينية ، ليكتسبوا ثقة الناس باسم الدين ثم يجروهم للشيوعية شيئاً فشيئاً ، لأن الشيوعيين يعرفون أنهم لو هاجموا رجال الدين أو المنتسبين إليه مواجهة ، فإن الناس ستصدهم ، فعمدوا لأسلوب الخداع والمراوغة ، وركوب الموجة .

فمن ضمن خططهم أنهم يطلقون لحاهم ، ويظهرون بمظهر المنتسب للجماعة ، بل ويكون الواحد منهم ملكياً أكثر من الملك ، ثم ينطلق ويحقق هدفه فى الطعن على العلماء والمنتسبين للدين ، ليضعف ثقة المجتمع بعلمائه ، ويفصم العلاقة القائمة بينهم ، وحينئذ يكون الناس صيداً ثميناً للدعوة الشيوعية ، ولا يستمعون للعلماء .

وقلت له : وأنتم حينما تهاجمون علماء الدين ، وتقولون هم علماء الحكومة وموظفون لتنزعوا ثقتكم وثقة الناس فى العلماء ، تتلاقون مع الشيوعيين ، وتساعدونهم على بلوغ هدفهم !! .

وشىء آخر أعتقده مخططاً وغرضاً مهماً من أغراض الشيوعيين . هو الإيقاع بين هذه الجماعات ، وبين الدولة والناس بأسلوب التطرف مع الناس ، والتهجم على الحكومة وإثارتها ، لتضرب هذه الجماعات ، ويتحقق بذلك غرض

الشيوعيين فى القضاء على كل نشاط دينى . . ولابد أن نذكر أحداث ١٨ و ١٩ يناير سنة ١٩٧٧ حيث كان بعض الشبان الذين يهاجمون ويحرقون الملاهى فى شارع الهرم ، يحملون المصاحف . . . وقد استطاع رجال المباحث التعرف على هؤلاء ، وظهر أنهم شيوعيون ، وكان غرضهم أن يلصقوا التهمة بالجماعات الإسلامية ، وبرجال من الإخوان ، ليتخلصوا منهم . فمثل هذه الظواهر لابد أن تجعلنا متيقظين وحذرين جداً .

وفى أحد المساجد الكبيرة ـ وكنت وزيراً للأوقاف ـ دعونى لإلقاء كلمة فى المتجمعين المحتفلين ، وتحدثت إليهم حديث الدين والعقل معاً . وظهر عليهم جميعاً روح الرضا والاقتناع والإعجاب ، ولكن قطع هذا الجو الطيب صوت شاب ملتح كث اللحية «مبهدل» المنظر ، وقف خلف الجميع ، واستأذن ، فأذنت له بالكلام والسؤال ، وإذا به ينطلق فى الكلام ويقول : إن مساجد وزارة الأوقاف كلها لاتقيم الفرض ولا السنة ولا . . . واستمر فى الطعن يخطب . ورأيت اشمئزاز الجميع منه ومن بجاحة أسلوبه . . فاكتفيت بهذا وتركته ، لكن تولى الرد عليه أستاذ كان قريباً منى «وسلقه» وقال أنا أحد المنتسبين إلى الجمعية الشرعية وما رأيت فى هذا الكلام الذى يقوله هذا

الشاب الملتحى ، ظلاً من الحقيقة ، فهو يتجنى ولا يريد إلا مجرد الطعن . وهمهم الحاضرون : هـذا من الجماعـات الإسلامية . . .

وأخذت أتلفت حولى لأجد هذا الشاب إن كان قد سمع هذا الرد أو لم يسمعه فلم أجده ، لقد ألقى خطبته وطعنته ومضى ، وتلفت الجميع لينظروا أين هو؟ ثم سمعت همهمة حولى : بأن هذا الشاب غير معروف .

وفهمت بخبرتى أنه واحد من هؤلاء الشيوعيين الذين يتسلقون لأغراضهم الخبيثة عن طريق الظهور بالانتساب للجماعات الإسلامية ، والظهور بمظهر المتدينين ، وأفهمت الحاضرين ما أفهمه من أمثال هذا الشاب ، الذين رسمت لهم الشيوعية الأم طريقاً للتغلغل فى الأوساط الإسلامية عن طريق ادعاء التعصب للإسلام ومظاهره . كما جاء فى الوثيقة السرية التى نشرتها مجلة «كومينست» الشيوعية ومجلة «العلم والدين» الروسية ، لهدم الإسلام من داخله (راجع ص ١٢٨ من كتابى «إسلام لا شيوعية» طبعة ونشر «دار غريب» القاهرة) .

هذه الظاهرة أصبحت موجودة استغلالا للجماعات الإسلامية والتطرف الذى يظهر عليها ويطفو على سطحها

لضربها ، ولابد أن يعيد أبناؤنا الذين نحنو عليهم كبذرة طيبة لشجرة نرجو أن تكون طيبة تؤتى ثمارها ، لابد أن يعيدوا النظر فى منهجهم ، ويسدوا كل الثغرات التى ينفذ منها سيئو النية إلى صفوفهم ، ولا يجعلوا أنفسهم مركباً سهلاً ذلولاً ، يتسلق عليه هؤلاء العملاء الذين تطاردهم الدولة ، فاختبئوا فى ظل الجماعات الإسلامية .

من الذي يستفيد من التطرف ؟ من الذى يستفيد من التهجم على العلماء والدعاة واتهامهم بأنهم موظفون وعملاء للحكومة ؟ من الذى يستفيد بهدم ثقة الأمة فى علمائها ودعاتها إلى الله ؟ من الذى يستفيد بالإيقاع بين الجماعات وبين الحكومة ؟ الشيوعيون وغيرهم هم المستفيدون ، فكيف نشترك نحن المسلمين المخلصين فى هدم هذه الثقة ، وتوفير المناخ المناسب للعمل الشيوعى ؟ .

لابد أن يفكر أبنائى فى الجماعات الإسلامية كثيراً ، وهم من أخلص الشباب للإسلام كما أعتقد ، ويقفوا وقفة حساب لأنفسهم ، ومراجعة للفترة الماضية ، ما لها وما عليها ، ويصححوا ما يحتاج لتصحيح ، ويسلكوا الطريق الذى يوفر لهم وللمسلمين جميعاً النجاح . . .

وليثقوا وأنا أقولها لهم من روح الداعية ، ومن موقف المطلع على ما لايمكنهم الاطلاع عليه ليثقوا أن قلوب الجميع تظللهم وترعى فكرتهم ، لأنها فكرة نابعة من إيمان الجميع بدينهم ، لكن بعض التصرفات السيئة التى تصدر أحياناً باسم الدين والجماعة الإسلامية ، هى التى تنغص وتؤسف وتنقص من شأن هذه الجماعات الوليدة .. وتولد حولها الأفكار السيئة ، وتتيح لأعداء الإسلام ويقظة الروح الإسلامية أن يتخذوا منها وسيلة لإطفاء هذه الجذوة ولإهالة التراب عليها .

وعلى سبيل المثال :

يردد بعض المسئولين فى الكليات ومعهم بعض الأساتذة ، أن أفراداً من الجماعات الإسلامية يتصرفون داخل المدرجات ، ومن واقع القوة مع الأساتذة والطلاب تصرفات غير مناسبة ، ولا كريمة ، يذكرونها فتثير التبرم والنقد المر لهذه الجماعات . . .

سمعت من أحدهم مثلاً : أن أحد الأفراد منهم يتقدم للمنصة ويأخذ الميكرفون من الأستاذ ليلقى على الطلاب كلمة بصورة غير مناسبة لكرامته ولا لوضع الأستاذ .

اشتكى إلىّ بعضهم من أنهم أخذوا الميكرفون والمنصة من الأستاذ أثناء محاضرته ، لأن أمير الجماعة قادم وسيتحدث إليهم ، واضطر الأستاذ للخروج !! فهل هذا يرضى أحداً ، أو يستقر به نظام فى كلية ؟ ثم ماذا سيكون عليه موقف الأساتذة جميعاً من طلبة الجماعات أثناء السنة أو عند الامتحانات ؟ ولماذا نضع أنفسنا فى هذا المأزق ، ونتصرف مع أساتذة لنا هذا التصرف ؟ وباسم الإسلام الذى يكرم العلم والعلماء أيًا كان علمهم ، فالعلوم بكل فروعها محترمة ومطلوبة فى نظر الإسلام ، وعلماؤنا وأساتذتنا الذين يعلموننا ، ويمهدون لنا طريق الحياة لابد أن يلقوا من طلبتهم ومنا كل تكريم .

وهل يستقيم الحال فى كلية أو فى مدرسة وهذا هو تصرف الطلبة مع أساتذتهم ؟ .

ولماذا نستجلب أو نستثير غضب أساتذتنا ومعلمينا علينا بهذه الصورة ، وبغير مبرر مطلقاً ؟ والكلية لها احترامها ، وقاعة الدرس لها احترامها وهيبتها ، والأساتذة لهم احترامهم وهيبتهم . ونحن نحفظ من صغرنا :

إن المعلم والطبيب كلاهما   لاينصحان إذا هما لم يكرما

إن أسوأ شيء فى هذه الصورة الكريهة ، أنها تخرج أمام الناس باسم الإسلام أو الغيرة عليه !! وفى هذا من تشويه الإسلام وآدابه ما فيه ، ومن تشويه العاملين باسم الإسلام ما فيه !! .

ومثلا آخر :

معرض كتب تقيمه إحدى الجامعات ، وفيه بالطبع كتب لكثير من كتابنا سمحت الجامعة بعرضها . وسمحت الدولة من قبل بطبعها ، وطبعت عدة مرات ، ووزع منها عشرات الألاف ، فيأتى طلاب باسم الجماعة الإسلامية فى الجامعة ، ويمنعون عرض بعض كتب ، لبعض من كتابنا ، الذين نفخر بهم ، ولهم فى المجال الإسلامى كتب نعتز بها ، ويعملون على جمع هذه الكتب من المعرض ، ورغم أنف العارضين ، وأنف الجامعة !! فى الوقت الذى يوزع فيه هؤلاء الأبناء كتباً مجلوبة من الخارج ، تنكر أن الأرض كروية ، وتهاجم الذين يقولون بذلك ، أو يقولون بصعود الإنسان للقمر !! وإلى هذا الحد !! هل هذا تصرف معقول ؟ أم هو فرض سلطة أو استعراض عضلات ؟ ثم وما النهاية ؟ ومن الكاسب ومن الخاسر ؟ وأين الحرية التى تطالبون بها ؟ .

هل نصبنا من أنفسنا حكومة ومجلس قضاء يحكم وينفذ رغم أنف الجميع ؟ .

وما مدى ما يثيره هذا التصرف من اشمئزاز ، ومن حملات على الجماعات الإسلامية هى فى غنى عنه بالمرة ، لأنها فى حاجة إلى عطف ومؤازرة .

إن التحكم فى حد ذاته أمر يثير كل نفس حتى ولو كان فى أمر نقره ، لأن النفوس تنفر من مجرد التحكم وفرض السيطرة ، فما بالنا إذا كان تحكماً فى هذه الصورة ؟ ! .

لماذا لانسير بتعقل ، ونعمل حساباً للعواقب ؟ ألسنا بهذا نحطم أنفسنا بأنفسنا ؟ ونوجد جواً من العداء أو النقد المر فى الرأى العام ضدنا ؟ إن كثيراً من الناس أخذوا يرددون : ماذا سيكون الأمر عليه لو قوى ساعد هؤلاء وأمكنهم أن يحكموا ويتحكوا فى الأمور ؟ ونتيجة لطرح هذا التساؤل يقولون : إن الأمر يجب أن يؤخذ من الآن بالحزم حتى لا يستفحل خطر هؤلاء . . .

فهل مثل هذه التصرفات فى مصلحتنا نحن رعاة الدعوة والفكرة الإسلامية ؟ لماذا لانفكر ولو قليلاً ؟ .

مثلاً آخر :

يصر بعض الطلاب على لبس الجلابية . . . فليكن . وليلبسوا ما شاءوا ، لكن أن يقولوا على الجلابية : إنها زى إسلامى «لا . . ويفتح الله» ليس فى الإسلام زى خاص . . المهم فى نظر الإسلام ستر العورة ، هذا هو الواجب ، وعلينا أن نسترها بأية وسيلة ، ثم نلبس مايناسب ، كل إنسان يلبس مايناسبه ، ويناسب الوسط . . يلبس جلابية فى أية صورة من صور الجلاليب ، يلبس بدلة كاملة ، يلبس قميصاً وبنطلوناً من أى قماش ، كما يلبس جبة وقفطاناً . . حسب الجو الذى يعيش فيه ، كل ذلك لا دخل للإسلام فيه وفى تحديده ، فمن أين جئتم بأن الجلابية زى إسلامى ؟

قالوا إن الرسول كان يلبس جلابية . فمن أنباكم أنها كانت مثل جلاليبكم ؟ وكان الرسول يلبس عمامة . فأين عماماتكم ؟ وكان ينام على ليف ، وكان ، وكان ، فهل اقتديتم بالأشياء الأخرى ، وهل اكتفيتم بما كان يأكله الرسول فى طعامكم ؟ ورضيتم به ؟ .

إن الرسول ﷺ كان يلبس مثل قومه . وكما كان يلبس قبل بعثته ، لم يتميز فى شكل ملابسه عن قومه من الكفار ، وكانت

معيشته كمعيشة قومه إلا ما جاء فى شأنه وحى ، وحين لم يأكل الضب سألوه هل هو حرام ؟ قال : لا . . ولكنه طعام لم يتعوده قومى .

يصر طبيب أن يلبس الجلابية ، ويذهب للمستشفى ويثير الكثير من المتاعب لنفسه ، وكأنها فرض عليه يصر على تنفيذه !! ويصبح هو فى جانب ، وكل زملائه الأطباء والمديرين وكل العاملين فى المستشفى فى جانب .

لماذا كل هذه المتاعب ؟ وباسم الإسلام ؟ .

والإسلام لم يجعل الجلابية فرضاً ولا سنة . . . لو قلت إنها زى وطنى تركناك وماتعتقد وماتعمل ، أما أن تحشرها فى الاسلام . . . فلا . . .

وتجد مع تمسكه بهذه الشكلية على أنها من الإسلام يخرج عن الإسلام فيسب هذا وهذه . ويدخل فى معركة بالأيدى مع أحد زملائه وينتقل الأمر إلى تحقيق إدارى ، ونقل . وتشتيت !! .

فلم كل هذا ؟ ومن أجل ماذا ؟ لو كان لأجل مبدأ جوهرى فى الدين لوقفنا معه وشجعناه . . .

أما من أجل الجلابية ولا صلة بين لبسها وبين الدين فهذا هو الغريب والمرفوض . . ليتنا نوفر جهودنا ونستغلها للجوهر ولما هو من الدين ومن صلبه حقاً !! .

ومثلاً . . طلاب فى إحدى الجماعات قام فى ذهنهم أن يفصلوا بين الطلبة والطالبات (بالعافية) قد يكون هذا حسناً ، ولكن كيف ؟ وهل هذا من الأمور الموكول إليهم تنفيذها ، أم الأمر أمر قوة وعرض عضلات ؟ .

هداهم تفكيرهم إلى أن يستعملوا قوتهم فى أن يصعد الطلبة من هذا السلم وتصعد الطالبات من سلم آخر ، ووقفوا بالمقشات والعصى لينفذوا خطتهم .

أهذا هو الطريق للفصل بين الطلبة والطالبات ، وبهذا الأسلوب ؟ . وماذا بعد السلم ؟ .

أهى مجرد مظاهر هوجاء وجوفاء ، واستعراض عضلات وكفى ؟ مع آثارها السيئة وعواقبها الوخيمة ! ألم يكن من الأجدى البحث عن طريق للإقناع ولو لأفراد قليلة ، لا بمجرد الصعود من السلم ، ولكن بالأدب الإسلامى الذى يجب أن يلتزمه الشبان والشابات فى كل أمورهم .

ومثلاً .. طلبة فى إحدى الجامعات يقبضون على ٢٦ طالباً من زملائهم المواطنين فى المدينة الجامعية ، ويأخذونهم رهائن لعدة ليال ، ليجبروا الدولة على اتخاذ موقف معين من قضية تحقق فيها النيابة ، ولم ينته التحقيق فى القاهرة وكان هذا حينما ضبط طالب ومعه منشورات و ٨٠٠ جنيه ، وكان الموقف فى غاية الحساسية ، فلو حصل أى تصرف صغير أهوج مع الرهائن لأساء ذلك إلى مصر كلها فى الأوساط الدولية ، ولكن بحمد الله لم يحصل اعتداء على هؤلاء الرهائن وربما كانوا يتمنونه ! وهذا هو ما يحمد للجماعة فى وسط هذا التصرف السيىء .

ولكن لِمَ هذا الموقف الحساس الخطير؟ وأى ميل فيه ولو شعرة يجلب الخطر الرهيب ؟ كما يجلب على الجماعة السخط العام وتقتل نفسها بحبال فتلتها بيديها ؟ وتخسر ويخسر الإسلام قوة شابة ننتظر فيها الخير للإسلام وللوطن ؟ .

فهل هذا تصرف يرضى عنه الإسلام الذى نعمل له وباسمه وبحماس وغيرة ؟ .

وهل أصبحت الجماعة دولة داخل دولة ؟ ولماذا تضع نفسها هذا الوضع الخطير؟ .

إن الغيرة وحدها لاتكفى ، بل ربما تدمر أحياناً ، والله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ويعلمه ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ﴾ .

فأين البصيرة التى علمنا القرآن إياها إن كنا حقاً ممن يتأدب بأدب الإسلام ويحرص عليه .

إن الإنسان الحر يسمع مثل هذه الأقاويل تتردد ، ويتناقلها أناس لهم وزنهم فيتمزق ويبكى قلبه أسفاً وحزناً .

ولكن هل نلوم الشباب وحدهم ، أو نلوم أفراداً لبسوا لباس الدين والغيرة عليه وجعلوا من أنفسهم قادة ، ويدفعون الشباب ويملئون أدمغتهم بأفكار عجيبة وهم أنفسهم مدفوعون لأغراض خاصة ، يخفونها لحساب جهات خاصة ، أو لحساب أنفسهم ، وزعامة رخيصة يحصلون عليها بين الشباب باسم التشدد والغيرة .

والله أعلم بحال هؤلاء القوم ، وبعض الجهات تعلم ، ولهم ملفاتهم التى تضم عنهم وثائق خطيرة لم يحن الوقت لنشرها ، استزادة فى إطالة الحبل ، وتمكينه حول رقبتهم .

ربما كنت أعرف بعضهم ، وأعرف عنهم أنهم استمرأوا العيش اللين الوفير يستبقونه ويستمطرونه بالطعن على مصر

وعلماء مصر ، وزعزعة الثقة فيهم ، محاولة منهم وممن دفعهم إلى أن يجردوا مصر والأزهر من كل مكرمة ، لماذا لايفطن أبناؤنا إلى هذا ؟ وإن كانت ظروفهم وجوهم المشحون لايتيح لهم مثل هذا التفطن ، فهأنذا أضعه أمامهم والله على كل شيء شهيد .

ولهذا أقف كثيراً عند إصرار هؤلاء الأبناء على اختيار أشخاص معينين لهم طابعهم المتزمت المعارض للدولة ليحاضروهم . فإذا جاءهم إنسان معتدل ، وملتزم بالحق لابالتهريج ، ولا بغيره ، ونصحهم ، هاجوا عليه !! فماذا تريدون إذن ؟ كأنكم لاتريدون إلا من يضرب لكم على نغمة التطرف ، ويسايركم فيما ترون ؟ مع أنكم فى شدة الحاجة لمن يصحح لكم خطأكم «ورحم الله امرأ أهدى إلىَّ عيوبى» .

ومثلاً . . أستاذ فى كلية عملية من كليات جامعة القاهرة قال لى : لقد دخلت على طالبة فى الامتحان تغطى وجهها ويديها ، لا أعرف من هى ؟ ورغبت كما هو مقرر فى الامتحانات أن أتأكد ، فطلبت أن تكشف عن وجهها لأعرف أنها هى الطالبة التى تجلس أمامى ، لكنها امتنعت . . وقالت ألست مسلماً ؟ قلت لها بلى ، ومحافظ تماماً على دينى وفرائضه وكنت داعياً إليه ،

وأنا طبيب بالخارج . . . وأعرف أن كشف الوجه واليدين يبيحه الإسلام . . .

قالت : لا . . . لن أكشف عن وجهى . . .

قلت لها حتى إذا كانت تغطية الوجه أمراً ضرورياً فى الإسلام فهنا كشفه ضرورة فى الامتحان ، والضرورات تبيح المحظورات ، ومع ذلك تجمدت الطالبة عند ترديد كلمة الإسلام ، فتضايقت ، وقلت لها إذا كنت هكذا فالقرآن يقول ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ وأقامها ، ولم يتمكن من امتحانها !! والنتيجة معروفة . . فهل هذا هو الإسلام الذى تتعلمه بناتنا ؟ وعلى يد مَنْ لا أدرى!! .

إن حديث الرسول يقول «إن الأنثى إذا بلغت المحيض لايصح أن يظهر منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى الوجه والكفين» وفى الحج يجب على المرأة أن تكشف وجهها وكفيها وإلا وجبت عليها فدية ما لم يكن هناك عذر شرعى كملاحة وجهها وفتنته إذا كشفته .

والذى قال به أئمة المذاهب وجمهور العلماء أنه لايجب تغطية الوجه والكفين إلا إذا كان كشف الوجه يثير فتنة للرجال ،

فيستر . . فالتى تتمسك بضرورة تغطية الوجه باسم الإسلام مخطئة ، وغير فاهمة للإسلام ، وتزيدها الضرورة القائمة ، وعدم تقديرها ، تزيدها خطأ وجهلاً وتعنتاً وباسم الإسلام مع الأسف !! .

نحن لانقول لها ان كشف الوجه واليدين واجب عليها ، ولكنا لانقول ان التغطية واجبة ، إلا فى الحالة السابقة ، ونترك لها الأمر .

إن شاءت كشفت ، ولم ترتكب حينئذ محرماً ، لأن الكشف مباح ، وقد استعملت حقها ، وإن شاءت غطت وجهها ، لكنا نمنعها من أن تحرف الحكم ، وتقول إن التغطية واجبة ، لأن هذا خلاف ما أفاده الحديث ، وخلاف ما اتفق عليه الأئمة ، وهى وشأنها فيما يحلو لها ، ويتفق مع ظروف الحياة من حولها . . . بحيث لاتحول الواجب إلى سنة ولا السنة تجعلها واجبة . لأن هذا تحريف للأحكام . . .

ومن أعجب ماسمعته من أستاذ بجامعة عين شمس أن التكنولوجيا الحديثة أتاحت لبعض الطالبات أن تستغل هذا الزى وتضع تحته جهازاً دقيقاً للإرسال والاستقبال أثناء

الامتحان ، السماعة الدقيقة فى أذنها وجهاز الإرسال أمام فمها أو قريباً منه ، وفى الخارج جهاز لدى إنسان فاهم المادة ، يسمعها ويجيب عن الأسئلة التى تخبره بها بالجهاز الذى معها وهى تكتب مايمليه عليها ، وزيها يغطى كل ذلك ويخفيه ، لايرى أحد السماعة فى أذنها ولا «المايك» قريباً من فمها ، ولا يرى شفتيها تتحركان بالكلام ، لأن ملابسها تغطى كل ذلك !! .

لكنهم ضبطوا هذه الحالة فعلاً كما أخبرنى الأستاذ وانطلق الخبر كالبرق ؛ طالبة من الجماعة الإسلامية عملت كذا . . . وكذا . . . وربما لاتكون من الجماعة فعلاً . . لكنها استغلت ملابس الجماعة ، والسمعة للجماعة !! .

والذى أتاح كل هذا هو المغالاة والتطرف من الجماعة ، وإلزام أنفسهن بما لايلزم !! وباسم التدين !! .

وأستاذ آخر فى جامعة يشكو لى مر الشكوى ــ وكان يلاحظ فى الامتحانات ــ يشكو من بعض طالبات الجماعة المتحجبات كلياً وحرصهن على الغش . . . ويصرخ فيهن . . كيف تحرصن على سنة من السنن ، وتفعلن المحرم ، وهو الغش فى

الامتحان ؟ ! صورة مهزوزة وكريهة لمن يدعى الغيرة والحرص حتى على السنن ، وفى الوقت نفسه يفرط فى الواجب ، ويفعل الممنوع !! نحن لانريد ولانحب هذا لأنه يسىء إلى الإسلام وإلى المنتسبين إليه .

إذا كنا قد بالغنا فى فعل السنة ، فيجب من باب أولى أن نحرص على الواجب . . هذا هو المعقول والمفروض ، وإلا كنا نلعب بالدين . . ونسىء إليه ، ولا يكسب الدين من فعل السنة بقدر مايخسر من ترك الواجب أو فعل الحرام . . أليس كذلك أيها العقلاء المحبون لدينكم ؟ ! .

لسنا ملائكة فلا معنى للادعاء ولا للمغالاة فى جانب والتقصير فى جانب آخر . . .

«وكلنا خطاءون وخير الخطائين التوابون» والإصرار على الخطأ بعد ما يتبين، خطأ وذنب أكبر ، ولابد أن نستفيد بالخبراء فى كل ناحية من نواحى العلم ، ولابد أن نستفيد من تجارب الآباء المجربين المشفقين ، ونستفيد أيضاً من تجاربنا ، ونصلح من أمرنا ونصحح من سلوكنا أولاً بأول على ضوء مايتكشف لنا من الماضى والحاضر ، وهذه هى الميزة التى ميز الله بها الإنسان وأرشده إليها . .

﴿ أَوَلَمْ يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ ليعتبروا بتجارب الماضين . . .

قد يقول قائل : لماذا تتحدث عن هؤلاء مع أن فيهم أشياء كثيرة طيبة ، ولا تتحدث عن المقابل لهم ، وهم المنحرفون ؟ لماذا تركز على بعض الأخطاء من هؤلاء ، وغيرهم أشد خطأ ولا تتحدث عنهم ؟ .

وأقول له : إننى فى غير هذا المكان لم أترك المنحرفين ، ومع ذلك فإن هؤلاء أبنائى وأعتز بهم فى الحقل الإسلامى ، وللمستقبل الإسلامى والوطنى ، وأنظر إليهم كأمل أريده أن يكبر ويصير إلى واقع أرجوه وأنشده ، وينشده كل غيور ، ولذلك أشفق عليهم من كل خطأ يصيبهم ، وأحاول قدر جهدى أن أصحح مسيرتهم ، وألا أسمع عنهم مايسوؤنى ، ويسىء إليهم ، كأبناء الإنسان تماماً .

إن هؤلاء قد اقتربوا من الهدف الذى أعمل له ، وأرجو الوصول إليه ، وهم كالشخص فى السباق أو الفريق فى الكرة يتعلق قلبك به . وتتمنى له النجاح والوصول إلى الهدف ، ولذلك فأنت تقعد وتركز عينك وقلبك عليه ، وتتحرك كأنك

تريد أن تعطيه قوة ، بل وتصرخ أحياناً «ياللا يافلان» وتنزعج كل الانزعاج من أى خطأ يقع فيه ، أو عائق يقف فى طريقه ، لتفرح وتسعد فى النهاية بفوزه . . .

والجماعات الإسلامية وكل العاملين فى الحقل الدينى هم فريقى الخاص « ولا أهلاوى ولا زملكاوى» ومن هنا أشفق ، لا على هؤلاء وحدهم بل على كل داعية خوفاً من أن يتعثر ، وأحزن ولا أنام إذا تعثر ، أو فعل مايشينه ، ويشين جماعته ، أو يسىء إلى دعوته .

ومن هنا أحاول تنقية هؤلاء مما يلحق بهم من بعض التصرفات المبالغ فيها والتى تثير عليهم بعض النفوس ، . وتضع فى طريقهم العقبات . . لأننى أريد أن يحبهم الناس جميعاً . ويعطفوا عليهم ، بل ويشاركوهم مشاركة فعالة وجادة فى طريقهم لنصل جميعاً إلى الهدف الغالى ، إعزاز كلمة الله فى الأرض ، وإصلاح شئون الوطن .

وفى الوقت نفسه أشجعهم على كل عمل طيب وفهم طيب ، وأستجيب لهم على قدر إمكانى . . ولا أترك فرصة تمر إلا تحدثت مع من ألقاه منهم تشجيعاً على الجهد الحسن ، وتنبيها للتصرف

الخطأ ، وتوجيهاً للخط المستقيم ، جاء إلىّ أمين الاتحاد العام للجمهورية ، وطلب منى كوزير مساعدة للمعسكرات الإسلامية من الأوقاف ، فوعدته وعداً صادقاً ، ولكنى طلبت منه أن يتقدم كل معسكر بطلبه ليأخذ على قدر حجمه ونشاطه ... وانصرف ولم يعد مع الأسف !! .

وجاءنى آخرون فمددتهم بالمصاحف ، وطلبت منهم أن يعودوا حتى أكون قد جهزت لهم الكتب اللازمة والمبلغ الذى أستطيع تقديمه .. ولم يعودوا ، وأظن أن قصر مدة المعسكر عاقتهم عن العودة .

وجاءوا إلىّ لينزلوا فى التكية المصرية مجاناً حين أدائهم للعمرة فوافقت وأعطيتهم تصريحاً بذلك .

وأرسل لى أمير معسكر لهم يشكو ويستنجد لحل مشكل لإخوانهم المقبوض عليهم فى المنيا . فكنت عند ظنهم ، وتفاهمت مع المسئولين لحل المشكل ، وانتهى فعلاً ، وأفرج عن الطلاب .

وأمور أخرى لا داعى لكشفها وهذا وإن كان تجاوباً روحياً معهم ، لكنى والحق يقال لم أكن أستطيع اتخاذ هذه الخطوات

الإيجابية الرسمية ، ولا أتصرف هذا التصرف كوزير لو كنت أعلم أن الدولة ضدهم ، وإنها تتخذهم أعداء لها لكنى أعلم أن فى قلوب الرسميين إشفاقاً وعطفاً عليهم ، وأنهم لايعارضون تصرفى ، ومما لاشك فيه أن مما يقتضيه إشفاق الآباء أن يتضايقوا أحياناً من بعض التصرفات وينقدوها ، لأنها خارجة وربما تعود أخيراً على الأبناء والمجتمع بالضرر وعلى الحركة الإسلامية والمد الإسلامى بالتوقف أو التعطل .

إننى والمسئولين وكل المخلصين غير المسئولين نحس حاجة الأمة فى نهضتها إلى المتدينين الحقيقيين أصحاب الخلق الدينى الرفيع الذين يرعون الله فى أعمالهم . . وأية بارقة من الأمل فى وجود أمثال هؤلاء نفرح بها ونحاول ونرجو أن تتوسع هذه البارقة لتكون نهاراً له شمسه التى تملأ الأرض بالضياء والحرارة . . .

الكل يتمنى هذا ، ويحزن لأى غيم يحجب ضوء الشمس ، ويؤذن بالصقيع ، ولقد رأيت الدموع تغمر عينى مسئول وهو يتحدث معى عن أخطاء هؤلاء الأبناء وتصرفاتهم ، التى تضطره للوقوف أمامها لدرء أخطارها وبسلطة القانون ، تماماً كالأب

الذى يتحدث عن أخطاء أولاده ، وكله إشفاق عليهم ، وهو يرجو أن يحميهم الله من أخطائهم . . .

ان الأب يهمه كثيراً ويقلقه خطأ أولاده ، وهو لذلك يتابع تصرفاتهم وينقدها وربما يشتد عليهم فى نقدها ، لأنهم أمله ورجاؤه وقد يرى غيرهم يخطىء مثل أخطاء أولاده ، ولكنه لايهتم بالغير كثيراً ، لأن الذى يهمه أكثر ، هو مسلك أولاده الذين يعطف عليهم ويحرص على حسن تربيتهم وطيب مسلكهم ، وازدهار مستقبلهم .

من هذه الروح روح الأبوة الحانية ـ تنطلق صور النقد لبعض التصرفات الخارجة ، رجاء تصحيح الأخطاء وتلافيها . . وليست هناك روح تحد أو تحفز ، فالأب لا يتحدى أبناءه ، ولايتحفز للإيقاع بهم ، وإن كان يشتد أحياناً عليهم لتقويم سلوكهم .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

مالى ولأولاد لا أعرفهم ولا صلة تربطنى بهم إذا رأيتهم يعبثون ؟ إنه مجرد إشفاق عليهم وعلى بلادهم من عبثهم .

ولكنى إذا رأيت أولاداً لى يخطئون أو أولاداً لصديق أو قريب ، توقفت معهم لأحاسبهم ، وإذا احتاجوا لردع ردعتهم ، لأنه يهمنى أمرهم ، ويهمنى مستقبلهم ، وأحس أنهم سيحترموننى لو كلمتهم .

بهذه الروح وانطلاقاً منها يتحدث المسئولون عن أولادهم وينصحونهم ويشفقون عليهم من الدخول فى مزالق ، والتعرض لتيارات لا يتحملونها أو استغلالات ربما لا يدركونها وهم شباب برىء صادق اللهجة ملتهب العاطفة ، يمكن التأثير عليهم ودفعهم بسهولة ، والزج بهم فى متاهات سياسية لا يدركون نهايتها ، ولا من المستفيد من إثارتها .

لقد وجدناهم يتدخلون فى كل أمر أو قرار سياسي ويتخذون منه موقفاً باسم الدين ، حتى صار الدين مطية لكل إنسان صاحب غرض سياسى ، وهو أصلاً معارض سياسى لسبب من الأسباب ، وعن طريق هؤلاء الأبناء الأبرياء يركبون موجة الدين ينفذون إلى أغراضهم بها ، حتى أصبحت حركات الأبناء الدينية مشبوهة بأغراض سياسية . وهنا صرح الرئيس الراحل مرة فى تصريحه المعروف «ما للدين والسياسة» قاله وذكر معه بعض التصرفات الطلابية السياسية باسم الدين ، وهو بلا شك

يقصد السياسية الملتوية الفاسدة التى ألبسها الطلاب ثوب الدين ببراءة . كما صرح بعد ذلك فى مجلس الشعب وكرر ذلك فى خطبته التى ألقاها فى اجتماعه بالإسماعيلية بالعاملين وهو (فى الحقل الدينى فى أغسطس ١٩٧٩م فقال فى مجلس الشعب) (الإسلام دين ودولة .. نعم) ثم بين أن الدين برىء من الاستغلالات السياسية التى تجرى فى الساحة أما السياسة الرشيدة العاقلة فهى صلب الدين ومهمته .

وكان من الاستغلالات السياسية المعارضة حينئذاك أن التقط المعارضون هذا التصريح «ما للدين والسياسة» دون أن يراعوا ما قبله ومابعده ، ودون أن يقدروا الروح والغرض والهدف من الكلام ، وأخذوا فى النقد ، وشرقوا وغربوا ، وكأنهم وجدوا فرصة للنيل منه ، وساهم الطلاب مساهمة فعالة فى هذا وهم لايدرون من المستفيد حقيقة من هذا كله ؟

وأصبح الطلاب بذلك واجهة سياسية للمعارضين تدس نفسها فى كل شىء ، وصاروا بيئة خصبة لكل رأى سياسى معارض . حتى أصبحوا مقصداً للمعارضين السياسيين ، إلى حد أننى سمعت من معارض فى إحدى لجان مجلس الشعب لم توافق على رأيه سمعت تهديداً بأنه سيذهب لطلاب الجماعات

الإسلامية ليثيرهم ، وهو لايدرى أنه بذلك يجنى جناية كبرى على أولادنا فى هذه الجماعات ، ويعطى المستمعين انطباعاً عنهم ، وفى جو متوتر بأنهم قوة معارضة لسياسة الدولة ، يهدد بها ، فيستثير بذلك الحفائظ على هؤلاء الأبرياء . ويصورهم بأنهم لعبة فى يده ويد أمثاله .

إلى هذا الحد وضع أبناؤنا أنفسهم فى الجماعات الإسلامية ، أو سمحوا لغيرهم أن يضعهم فى هذا الموضع ، وهكذا يجنون على أنفسهم ، أو يتركون غيرهم يجنى عليهم ، وهم لايزالون فى مراحل التعليم ، وأى شىء ولو صغيراً يصيبهم يضر بمستقبلهم ولذلك نصح العقلاء بأن يركز هؤلاء الطلاب على النجاح فى دراستهم ، ولايزجون بأنفسهم فى بحار السياسة وأمواجها إلى حد يعطلهم عن الدراسة وبعد التخرج يعملون مايشاءون ، تماماً كما يقول الوالد الرحيم لأبنائه من صلبه .

ومن المؤكد أن المسئولين لن يتركوا أمور الدولة يلعب بها هذا أو ذاك . أو يعبث بمصيرها هؤلاء أو أولئك ، إذ لابد لكل دولة تحترم نفسها أن تضرب على يد كل عابث ، أو مثير للقلاقل يتخذ لنفسه دولة داخل دولة ، لابد لكل دولة أن تتخذ هذا

الموقف ، وهى لاتعجز عن ذلك سواء بالقوة أو بسن القوانين التى تحفظ الأمن والاستقرار وتقطع على المغرضين والمثيرين طريقهم .

وهذا لابد أن يدركه أبناؤنا وغيرهم ، لابد أن يعرفوا تماماً أن الدولة لن تعجز ، ويمكنها أن تسن من القوانين المناسبة ماتحاسبهم بمقتضاها وتأخذهم باسم سيادة القانون .

أقول هذا إشفاقاً على هؤلاء الأبناء ليدركوا مداهم وليدركوا المناخ الذي يعملون فيه ، وليعلموا أن حسن النوايا قد يكون طريقاً إلى العذاب والفشل . . وأن من الحكمة لكل مفكر ومشتغل بالقضايا السياسية أو الدينية أن يكون لديه «ترمومتر» حساس للجو حوله . حتى يتصرف على ضوئه ، كقائد الطائرة ، وهذا ألزم للعاملين باسم الدين ، لأنهم محاسبون أمام الناس وأمام الدولة على كل كلمة وكل تصرف ، بميزان الدين الذين يعملون له ، ويدعون إليه ، ولابد أن يتصرفوا بمهارة حتى لايصيبوا الدعوة بنكسة فوق ما أصابها من نكسات فى الماضي القريب وقد كانت أشد قوة وأصلب عوداً ، وأكثر عدداً وجنداً ، لاسيما وبلادنا تمر الآن بمرحلة صعبة لم تمر بمثلها ، فهى تحتاج لإعادة بناء فى كل مجال فيها ، ونحن ــ الشعب والدولة ــ

نطلب ذلك ونعمل له معاً ، وكل هزة تحدث فى الداخل تعوق البناء وتؤخر الركب ، وتلحق الضرر بنا جميعاً .

لابد أن نحسن مراعاة الظروف ، ونقدر «لرجلنا قبل الخطو موضعها» فلكل وقت ظرفه ، وله التصرفات المناسبة له ، والكلام المناسب له أيضاً ، ونحن نحفظ : لكل مقام مقال ، ولكل حدث حديث ، والذى لايقدر هذا ولايعمل بمقتضاه يكون إنساناً أهوج أخرق ، ولابد أن يصطدم ويرتطم ويتحطم . ويضر نفسه وفكرته .

والعمل الإسلامى بوجه خاص يمر بظروف حرجة ، وله الكائدون له والمتربصون به فى كل مكان فى الداخل والخارج ، ومن سوء التقدير أن يظن الذين يعملون فى الحقل الدينى أن الجو حولهم ممهد لهم ، أو أن الجو لهم وحدهم ، أو أن مجرد اقتناعنا بأمر يعنى اقتناع الآخرين من المسلمين أو غيرهم به ، والقائد الماهر أو الجندى لابد أن يعرف طبيعة الأرض التى يحارب عليها ، والجو الذى تجرى فيه المعركة ليعد لكل أمر عدته . . وقد عرفنا عن معركة رمضان أن القيادة المصرية درست كل شيء قبل العبور ، حتى زقت المد والجزر ، وتيار المياه فى القناة ، حتى لايعوق العابرين أو يعطلهم .

لقد كان المرحوم الشيخ حسن البنا طيب الله ثراه ، من أقدر الناس على قيادة الحركة الدينية ، وتجنبها الصدام الذى يعوق حركتها ، أو يقتلها فى مهدها ، وظروف نشأتها ، فاستطاع فى سنين قليلة أن يكون حوله ذخيرة من شباب مصر ، ويسلحهم بالإيمان والبصيرة به .

ولم يكن هو متعجلاً ـ وإن تعجل بعض الشباب حوله ـ ولكنه كان يخطو بأناة ، ويكسب كل يوم أرضاً جديدة أو قلوباً جديدة ، بدعوته الهادئة المقنعة ، ولو أن بعض الشباب الذين حوله ، لم يتعجلوا الأمانى ، ولم يخطوا خطوة أوسع من قدرتهم ومن الظروف حولهم ، ولم يلجئوا إلى القوة وإلى القتل والاغتيال لبعض الرجال المصريين لكان خيراً وأحسن حالاً .

لو أنهم التزموا بخطة ومنهج مرشدهم ، ولم يغتروا بتنظيمهم السرى وقوته فى نظرهم ، لكان لدعوتهم الآن آثارها الطيبة العظيمة ، ولجنت الأمة وجنت الدعوة الإسلامية ثمراتها الحلوة . . ولأحدثوا انقلاباً هائلاً ، سلمياً فى اتجاه هذه الأمة ، والأمم الإسلامية حولها . . .

وكم كنت فى موقفى خارج إطارهم التنظيمى ، وموقفى

القلبى معهم فى دعوتهم ، واطلاعى بحكم هذا التوافق والتلاقى القلبى على كثير مما كان يجرى داخلهم ، وعلى الكثير أيضاً ، مما كان يمكن أن يتعرضوا له ، كنت شديد الإشفاق عليهم جميعاً ، وعلى الحركة الإسلامية الناجحة التى بعثها وقادها المرحوم الشيخ حسن البنا ، من تصرفات بعضهم ، وتصورهم أنهم صاروا قوة يمكنهم بها مواجهة الحكومات ، وقلب نظم الحكم . .

أذكر أنه فى صيف ١٩٥٤ ، وكان الإخوان قادمين على انتخاب للمرشد العام : هل يظل الأستاذ حسن الهضيبى وهو صلب ومتشدد ، ومستفز بتصرفاته ، أو يختارون مرشداً آخر فيه الكثير من سياسة حسن البنا ومرونته ؟ أذكر أنه جاءنى أخ عزيز وزميل قديم فاضل ، هو الشيخ الدكتور محمد نايل الأستاذ بكلية اللغة العربية وقتها ، ليبلغنى رسالة ورجاء عن بعض المعتدلين من الإخوان وعلى رأسهم المرحوم الشيخ محمد فرغلى والمرحوم الأستاذ عمر أن أتوسط لدى صديقى عضو مجلس قيادة الثورة والمشرف على جريدة الجمهورية السيد أنور السادات لكى يتوقف عن مقالاته التى يهاجم فيها الأستاذ الهضيبى لأنها تكسبه عطفاً ، وتجمع الإخوان حوله . . .

وذهبت وقتها مع أخى الدكتور الشيخ نايل إلى صديقى من أيام معتقل سنة ١٩٤٢ أثناء الحرب السيد أنور السادات ، فى مقره بالمؤتمر الإسلامى بالزمالك وكان سكرتيراً عاماً له .. وتحدثنا معه فى الموقف ، ورجوناه باسمنا واسم إخواننا أن يتوقف عن مهاجمة الهضيبى الأيام القليلة الباقية على الانتخابات .. حتى يمكن أن ينجح مرشح المعتدلين ، ويقود السفينة دون صدام ...

وتحدثنا كثيراً وشكى كثيراً من أن الإخوان لم يعد لهم قائد يلتزمون برأيه وقراره .. ومن الصعب علينا ــ كما يقول ــ الاتفاق معهم على شىء .. لأننا نتفق اليوم على خط ، فنفاجأ غداً بمن يخرجون عليه ، ولكن أقنعناه أخيراً بالتوقف ، ولو أنه فات أوانه قليلاً لأنه كان يجب التوقف قبل ذلك ، بل كان الأفضل عدم الهجوم عليه فى هذا الظرف ، لأن هذا كان سيعين المعتدلين .. حتى لايكونوا ظاهرياً مع الحكومة ضد الهضيبى .

وكنت أناصر المعتدلين ، لما أعرفه من مواقف متعددة خشنة ومثيرة ومستفزة لرجال الثورة من الأستاذ الهضيبى وكنا نرى عدم الصدام ، وإتاحة الفرصة للإخوان لينصرفوا إلى دعوتهم ، دون الاستغراق فى التيار السياسى الحرج وقتها .. وكنت أقول

لبعض الأصدقاء من الإخوان ومن أعضاء مكتب الإرشاد : دعوا سفينة السياسة الآن لرجال الثورة «المتعافين» المتوثبين للحكم . . دعوهم يأخذوا «الفُم» الأول والثانى من الغسيل ، وانصرفوا أنتم للعمل الاجتماعى وسط الشعب فى التعليم ، وفى الصحة ، فى الإصلاح الاجتماعى ، والتغلغل فى وسط الشعب بخدماتكم ، وإذا كنتم تتطلعون للحكم ، فسيأتى إليكم بسهولة ، بعد أن يجرب الشعب حكم هؤلاء الضباط ، ونصف الناس أعداء لمن ولى السلطان ، هذا إن عدل .

وكان بعض المتحمسين منهم يقول لى : لأنك صديق أنور السادات ، فأقول ولكن الدعوة الإسلامية أصدق لى منه ومنكم ، وأخشى عليها من التوقف ، وعلى رجالها والمنتسبين إليها من الشباب الطيب من التنكيل .

فالذين طردوا الملك ، وألغوا الأحزاب ، إلا أنتم باعتباركم جماعة ، تعاطفاً معكم ، وألغوا الإقطاع ، والألقاب والرتب الخ ، لن يصعب عليهم أن يميلوا عليكم ميلة واحدة ، فلا تقوم للدعوة بعد ذلك قائمة .

وكنت كثير الإلحاح عليهم خوفاً على سير الدعوة . . مما

سمعته من صديقى مرة : إذا لم يتفق الإخوان على كلمة معنا ويبتعدوا عن هذه المهاترات والتصرفات ، فإننا لن نرحمهم ، وسنتخذ معهم أقسى عوامل التأديب . كانت هذه تزعجنى وتقلقنى على مصير الدعوة ، وكلما رأيت الخلافات بين الإخوان ، وعدم التزامهم بخط واحد يسترشدون فيه ، بخطى المرحوم الشيخ حسن البنا ، ازددت قلقاً عليهم ، لكنى ماكنت أستطيع أن أحكى لهم هذا الإنذار وكنت أعوض كتمانى له ، بمزيد من الإلحاح على بعض أعضاء مكتب الإرشاد ومن أصدقائى الذين يتجاوبون معى ، ويعرفون مدى إخلاصى للدعوة ، أن يجمعوا كلمتهم ويحكموا خطواتهم ، ويلتزموا جانب الاعتدال ، حتى لايثيروا الضباط عليهم . . .

وكان الإخوة فضيلة الشيخ الغزالى والشيخ سيد سابق ، والمرحوم حلمى المنياوى وغيرهم من كبار قادة الخط المعتدل ، غير راضين عن تصرفات الهضيبى ومن كانوا معه مدفوعين بحب الزعامة والظهور .

وأصل بعد هذه الذكريات السيابة إلى النقطة التى قالها لى المرحوم أنور السادات ليلتها . فتح الدرج من مكتبه وأخرج تقريراً من بيروت ، يقول سفيرنا فيه ، إن سفير دولة كذا أخبرنى

بحديث جرى بينه وبين القطب الإخوانى عبد الحكيم عابدين عليه رحمة الله .. قال فيه : إن الإخوان لديهم ثلاثة ملايين من الشباب المدربين يستطيعون أن يقلبوا هذا الحكم الثورى فى لحظة .. وأطلعنا على هذا التقرير، ولعل أخى الدكتور نايل لايزال يذكر هذا .. وأنا أذكره الآن كعبرة لشبابنا من الماضى .. ألا يغتروا بشبابهم أو بقوتهم ، ويتصرفوا تصرفات يستفزون بها الأجهزة الحاكمة لمنازلتهم ، وتحطيم قواهم .

وليأخذوا العبرة الوافية مما حصل للإخوان المسلمين ــ وقد كانوا من العدد ومن القوة مانعرفه فى الداخل والخارج ، ولكن حين اصطدموا بالجهاز الحاكم فعل بهم مانعرفه ، وخسرت الدعوة قوة كانت تزداد كل يوم إيماناً وصلاحاً ، وتصميماً على الخط الإسلامى للنهوض بالأمة .

وخسر الأشخاص والعائلات ، وخسرت الدولة ، ولاتزال حتى اليوم تخسر كل يوم رصيداً كان يمكن أن يكون فى صف الإسلام والأمة . . .

ولست هنا بصدد من يتحمل مسئولية هذا ؟ ولكنى أذكر هذا ليعتبر أبناؤنا ، ويعتبر المسئولون أيضاً ، فلم تكن خسارة الدولة

ومسئوليتها بمتابعة الإخوان ، والأبرياء منهم ، وإيقاعها الظلم بالكثير من أبناء الوطن ، أمراً سهلاً ، ولم تكن خسارة الأمة بضياع مجهود أبناء أعزاء شرفاء أمراً سهلاً .

وكان السبب فى هذه الخسارة كلها تعاظم خوف الحاكم المستبد من أن يخدش الإخوان حكمه ، أو يظنوا أنه ضعيف أمامهم . . فاشتد وعنف فى بطشه بهم إلى حد لم يقع حتى من المستعمرين أعداء الوطن والوطنين .

ونحن نحمد الله كثيراً على ماتتمتع به مصر الآن من حرية ، ومن حاكم ليس فى نفسه عقدة الحكم أو السيطرة وليس فى طبعه البطش ، بمن يخالفه فى رأيه ، ولكنه كما نرى ، مع طهارته التى يجمع الجميع عليها ، يسوس حكمه باللين والإقناع ، ويستقبل المعارضين ويستمع إليهم ، ويقرأ النقد المر له ، صريحاً أو ملفوفاً ، ولا يستدرجه هذا إلى البطش بأحد .

والحكم الآن للقانون ، ويمكن لأى إنسان أن يتصرف ، ويدعو لما يريد ، فى حدود القانون الذى يحرسه قضاة شرفاء .

وليس من مصلحة أحد فى الدولة ، أن يستغل أحد هذا الجو ، فيتجاوز حدود القانون ، ويسىء إلى نفسه ، وإلى فكرته

ودعوته إلى حد يتيح لبعض المتربصين بالحرية ، أن ينادوا بالحد منها ، كعلاج لهذا التجاوز ، لاسيما والبلد فى حالة لاتحتمل الاستهتار ، ولا اللعب بالنار .

والقائمون بالدعوة إلى الله هم أول من يجب عليهم الالتزام بهذا فى دعوتهم تأدباً بأدب الإسلام ، والتزاماً بتوجيهاته فى الدعوة «بالحكمة والموعظة الحسنة» .

إن الدعوة الهادئة العاقلة المنطقية أسرع إلى القلوب من أى أسلوب سواها .. وترك «الحنفية» تنزل منها الماء نقطة نقطة تملأ الكوب» خير بلا شك من كسر الحنفية وسدها ...

والإصلاح التدريجى الذى تقتضيه الظروف هو خير وأبقى من أى إصلاح بالقوة والعنف الخارج عن حدود الدين والقانون .

إن هناك أموراً كثيرة ، فى حاجة إلى علاج وإصلاح ، فيها السهل الممكن ، وفيها المعقد الصعب ، وعلى الشعب والدولة حشد القوى لتنفيذ السهل الممكن ، والتريث والتفكير فى حل المعقد ، واختيار أفضل السبل لهذا الحل ، دون رد فعل ضار بالأمة ، ولو أخذ ذلك وقتاً على طريقة الماء للكوب نقطة نقطة .. والنقطة . نقطة ، تفتت الحجر — كما يقولون — .

والمهم التركيز على الفكرة ، والاستمرار فى الدعوة إليها ، ودون هوس ينفر الناس ويبعدهم ، فالدعوة بالعنف والقوة حتى لأسمى عقيدة ، وهى توحيد الله ، لايمكن أن تجدى ، بل تأتى بعكس المطلوب ، ولذلك وجه الله رسوله ﷺ فقال : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ وحتى المخالفين لنا فى الدين وقال : ﴿ ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ لأن المهم هو الإقناع بالكلام الذى يمس القلوب ، ويشعر المدعو والمتحدث معه ، بأنه لاتعالى عليه ، ولا ضغط ، بل فيه حب له ، ورغبة فى مصلحته .

وقد يمكن إجبار الجسم على عمل ما ، لكن إجبار القلب على الاقتناع والإيمان بفكر ما دينياً أو غير دينى ، يأتى دائماً بعكس المطلوب ، ويثير فى نفس الذى نتحدث معه روح التحدى والعناد ، ولذلك نفى الله نفياً حاسماً وقاطعاً استعمال أى إكراه على الإيمان بالله فقال : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾ [البقرة] .

والداعى لا يليق به ، ولا يجوز له أن يفرض نفسه وصياً على الناس ، لأن الناس إذا شعروا منه بهذا نبذوه ، ونبذوا

كلامه . . فعليه أن يدعو بالبيان المقنع ، ويترك الناس ومايختارون . . فإذا اختاروا غير ما يجب فلا يجوز له بحال من الأحوال أن يتخذ من نفسه قاضياً يحكم عليهم ، وشرطياً ينفذ الحكم فيهم ، لأنه بهذا يسىء إلى مركزه كداعية ، ويسىء إلى دعوته ، ويستفز الناس للوقوف ضده . فيكون هو الخاسر فى النهاية هو وفكرته التى يدعو إليها .

ولا يشفع له مايعتقده أنه يدعو إلى خير وإلى صواب ، فالدعوة إلى الخير لابد أن تسلك سبل الخير ، والدعوة إلى صواب ، لابد أن تتجنب الأخطاء ، دينية كانت الدعوة أو غير دينية . . وإن تكن فى الدينية ألزم وأوجب .

والداعى إلى فكرة لابد أن يكون عالما بما يقول ، وبما يدعو إليه ، عارفاً بالمسالك التى يسلكها فى الدعوة ، حريصاً على ألا تهتز شخصيته ، بخطأ علمى أو سلوكى يقع فيه . . ولابد أن يكون عارفاً بنفسية الذين يتعامل معهم ، ويتحدث إليهم ، وأن يخاطبهم على قدر عقولهم ، وعلى مستوى نفسيتهم ، وأن يكون ملماً وملماً بنفسيات الشعوب ، وأطوار التاريخ ليتخذ منها عبرة . . وهذه هى وصية الرسول ﷺ وصحابته ومسلكهم

«خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتحبون أن يُكذَّبَ الله ورسوله ؟» .

ومن الضرورى أن يكون الداعية بصيراً وحكيماً ، فيقدم الأهم على المهم ، ولا يتمسك بالقشور والمظاهر ، ويقف عندها ، ويثير الجدل والمعارك حولها ، وهى لاتقدم ولاتؤخر كثيراً . بل يعمد رأساً إلى اللب ، ويدعو إليه ويركز ، وإن استدعى ذلك ترك بعض المظاهر .

موضوع اللحية

وهنا أذكر بعض الذين يجعلون همهم فى تربية اللحى وإطالتها ، ويجعلونها مقياس الدين .. وعلى قدر طولها يكون دين الإنسان عندهم . ولذلك تراهم أحياناً يرفضون أن يصلوا خلف حليق اللحية ، فإذا اضطروا لسبب من الأسباب وصلوا خلفه عمدوا إلى إعادة الصلاة ، كأن إمامة الحليق باطلة !! .

وليس من شروط صحة الإمامه أن يكون الإمام ملتحياً ، حتى يتكلف هؤلاء مثل هذا الموقف ، ويزايدون .. وهم بمثل هذا يرتكبون إساءة ، ولا توجد فى صلاتهم خلف حليق اللحية أية إساءة أو كراهة كما يتصورون .

وأود بهذه المناسبة أن أبسط القول قليلاً فى تربية اللحى ، وأذكر السبب الذى كان وراء قول رسول الله ﷺ : «قصوا الشوارب وأعفوا اللحى وخالفوا اليهود» أو كرواية مسلم «جزوا الشوارب وأرخوا اللحى وخالفوا المجوس» .

وقد روى عن الرسول ﷺ أيضاً كما روى أبو داود «خالفوا اليهود فإنهم لايصلون فى نعالهم» وفى رواية «صلوا فى نعالكم وخالفوا اليهود» .

فإن الأمر بإعفاء اللحى ، والأمر بالصلاة فى النعال واحد ، وسببهما واحد ، وهو المخالفة لليهود ولغيرهم . . وكما جاء الأمر أيضاً بخضاب اللحية بغير اللون الأسود ، لأن اليهود لايخضبون «غيروا الشيب ولاتشبهوا بأهل الكتاب» أو «لاتشبهوا باليهود» كما رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وقد بسطت القول فى هذا فى كتابى «الثقافة الإسلامية بين الغزو والاستغزاء» بطبعة دار المعارف ، ولا بأس أن نذكر شيئاً عن ذلك هنا مختصراً للاستفادة .

كان الرسول ﷺ فى أول أيام الهجرة يحب ــ كما روى ابن عباس ــ موافقة أهل الكتاب تأليفاً لقلوبهم ، وجذباً لهم إلى

الإسلام ، وكانوا قبل هجرته يهددون جيرانهم فى المدينة ، بأن نبياً سيبعث من العرب ، وسيسارعون بالإيمان به ، وينتقمون منهم ، فكان الأمل فى إيمانهم قوياً ، ولذلك لم يصدمهم الرسول أول الأمر ، وكان يوافقهم فى بعض المظاهر كسدل الشعر مثلاً كما يسدلون وتركه ينزل من رأسه على ناصيته ، ولا يفرقونه ، كما كان المشركون يفعلون «فسدل رسول الله ثم فرق بعد» فى حديث متفق عليه فى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما يقول فيها «كان أهل الكتاب (اليهود) يسدلون أشعارهم ، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، وكان ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشىء وسدل رسول الله ، ثم فرق بعد» .

وكان هذا كما قلنا فى أول فترته بالمدينة ، تألفاً لقلوبهم فى أشياء لاتضر ، وليس فيها توجيه من الله . . لعلهم يسلمون ، وينضمون لجمهور المسلمين فى المدينة .

وسار الحال على ذلك أكثر من سنة ، وبدت من اليهود روح العداء فى كثير من تحركاتهم ، ويئس الرسول من إسلامهم ، فلم يكن بد إزاء هذا أن يتخذ موقفاً مناسباً له ، فتمنى أن تتغير القبلة من بيت المقدس للكعبة ، ونزل القرآن محققاً لأمنيته ﴿ قد

نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ [البقرة : ١٤٤] .

ومادام اليهود يصرون على دينهم وقوميتهم ، فليس من المناسب أن نتشبه بهم حتى فى ظواهرهم . . ففرق الرسول شعره ، بعد أن كان يسدله ، وأخذ يوجه صحابته إلى مخالفة هذه الظواهر اليهودية حتى قال اليهود «ما بال محمد لايريد أن يترك أمراً من أمورنا إلا خالفنا فيه» فهو يقول لأصحابه «نظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود» .

ويقول لهم : «حفوا الشوارب وأعفوا اللحى وخالفوا اليهود» .

ويقول : «غيروا الشيب ولاتشبهوا باليهود».

ويقول : «صلوا فى نعالكم وخالفوا اليهود فإنهم لايصلون فى نعالهم» .

وكان المجوس يجزون شعر رؤوسهم ولايبقون إلا جزءاً منه أعلى الرأس فنهاهم أن يفعلوا مثلهم ، وكانوا يحلقون قفاهم مما يشبه ما نفعله من «التدريجة» فنهاهم كذلك .

والأمر فى اللحى كالأمر فى النعال ، كالأمر فى خضاب الشعر ، كالنهى فى حلق القفا .. ولذلك كنت أرى وأنا بالهند كراهة العلماء هناك للتدريجة وحلق القفا ...

كل ذلك كان الغرض منه أن يخالف المسلمون مظهر اليهود والمشركين والمجوس ، حتى يكون لهم مظهر خاص بهم يتميزون به ، ولا يذوبوا مظهرياً فيمن حولهم .. ليدعم فيهم روح استقلال الشخصية ، ولذلك غير الأعياد التى كانوا يحتفلون بها قبل الهجرة إلى عيدى الفطر والأضحى .

وإذا كان أمر رسول الله فى هذا كله وفى تعليله واحداً ، فلماذا نقصر جهدنا على اللحى ؟ لماذا لا تأخذ الصلاة فى النعال وخضب الشعر وعدم حلق القفا ، هذه العناية وهذا التعصب ؟ .

لماذا تأخذ اللحية وحدها هذه العناية دون غيرها ؟ .

جاء فى كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية ص ٥٨ رواية عن الإمام أحمد «أنه وجه نصيحة لأحد أصحابه الورعين ، وقال له : اختضب ولو مرة واحدة» وهذا يدل على أن صاحبه الورع لم ير فى عدم الاختضاب مخالفة للسنة ، وقول الإمام له «ولو مرة واحدة» يدل على مراعاة المظهر ، ولو مرة

واحدة فى العمر . وهذا يدل على أن كل ماورد فى هذه المظاهر إنما هو أمر سنة مظهرية ، والورعون لا يلزمون أنفسهم بها .

ولم نجد حتى الورعين يصلون فى نعالهم ، سواء كانوا فى صحراء أو فى مدن ، فيما عدا بعض أهل نجد .

تقلصت كل هذه الأوامر كلها عند اللحية . . وأخذت هذا المظهر الحاد ، مع أن الأمر والصيغة والعلة فيها كالأمر والصيغة والعلة فى غيرها . . وهى كلها سنن مظهرية لها علتها ووقتها . ولا يجوز أن تأخذ منا هذه الحدة . وهى لا صلة لها بعبادات ، كما أشار ابن تيّمية فى كتابه السابق ص ١٨١ .

فالذي يريد أن يأخذ هذا المظهر فليأخذ ، وهو حر فى ذلك ، لكن أن يتخذ اللحية مقياساً لدين الإنسان ، ويمتنع عن الصلاة خلف الحليق ، فهذا ليس من الدين والفقه فيه ، ولا من الورع .

وعليه مادام يريد التدين عن هذا الطريق ، أن يتبع الأحاديث الأخرى ، ويلتزم بالصلاة فى النعال ولايحتج بحالة الشوارع ، فالأمر عام ، ومن رأى الأحناف أنها تطهر بالدلك . وليخضب لحيته إن ابيضت . ولا يحلق قفاه لا بالموس

ولا بالمكنة ؛ اتباعاً لما قاله الرسول ﷺ ثم ان إعفاء اللحى لايلزم منه ألا يهذبها .

ولذلك رأينا المرحوم الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر سابقا يقول ـ كما جاء فى كتابه «الفتاوى» ـ إن حلق اللحية من الأمور والخصال الفطرية ، كتقليم الأظافر ، وإزالة شعر الإبط ، والعانة إلخ . . ثم قال : «إن أمر اللباس والهيئات الشخصية ومنها حلق اللحية من العادات التي ينبغى أن ينزل المرء فيها على استحسان البيئة ، فمن درجت بيئته على استحسان شيء منها ، كان عليه أن يساير البيئة ، وكان خروجه عما ألفه الناس فيها شذوذاً عن البيئة» ص ٢١٠ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩ . . .

ومما قاله ابن تيمية فى كتابه السابق ص ١٨١ : «وما لم يكن من خصائص دينهم ولا شعاراً له ، مثل نزع النعلين فإنه جائز كما أن لبسهما جائز» واللحية مثل ذلك لأن الأمر فيهما واحد حتى فى الألفاظ وفى العلة فالأمر إذن ـ لا يتعدى الجواز ، ولا داعى لأن نعطيه هذه الأهمية ، ونثير المشكلات بسببه . . .

ومثل هذه الأمور والتصرف فيها من فقه الرجل بدينه ، فلا يعطى أمراً فوق أهميته ولا درجته . . اجتمعنا مرة على الفطور فى

رمضان فى ساحة أحد المساجد ، وأفطرنا على التمر والماء ، ثم قمنا لصلاة المغرب ، فإذا بشاب صغير السن طويل اللحية لايزال طالباً بإحدى الكليات ، يسارع ليؤمنا فى الصلاة وأنا واقف خلفه فى الصف الأول ، أستعد فعلاً للإمامة ، وبُهت الناس ، وسارعوا فجذبوه من مكانه ، وأعطوه درساً فى الذوق ، وفى الفقه الذى كان غائبا عنه ، من أن التقدم للإمامة هو للأقرأ والأعلم لا لمن كانت لحيته طويلة ، وكانت لى لحيتى لكنها ــ والحق يقال ــ لم تكن طويلة كلحية الشاب . . .

وصلينا . . ولشدة ما كانت دهشة المصلين ، حين رأوه مع بعض زملائه من أصحاب اللحى ينفردون ، فى ناحية ، ويعيدون صلاة المغرب . . بعد أن اضطروا للصلاة خلفى !! كأن صلاتهم خلفى كانت باطلة !! وباءوا من الناس بسخط عظيم . . .

إلى هذا الحد يظهر هؤلاء بهذه الصورة المنفرة ، ويظنون أنهم بهذا ينفذون تعاليم الدين ، وما لهم فيها من حظ ولا نصيب .

وهل بمثل هذا التصرف الجاف البعيد عن الإسلام وذوقه وتعاليمه ، يحببون الناس فيهم ، ويجذبونهم إليهم ؟ ثم إننى وأنت نلاحظ أن كثيراً ممن يعفون لحاهم ، عابسوا الوجوه

«مبوذين» باستمرار ، خشنون فى كلامهم ومعاملاتهم ، كأن هذا جزء من الدين ، مع أن المؤمن هين لين وبشوش .

وتجد مثل هذا حتى فى الممثلين الذين يمثلون شخصيات دينية ، وهو تصور خاطىء فيه اعتداء على سماحة الدين وسماحة أهله . . تراهم عابسين «يشخطون» ويرفعون أصواتهم ، فوق الحدود المناسبة ، كأنهم فى معركة حامية ، وكأن هذا العبوس من لوازم المتدينين !! وهذا خطأ .

فإن البشر والفكاهة وطلاقة الوجه من طبيعة النفوس الزكية ، ما دام لايوجد داع لعبوس الوجه . ولقد كان الرسول ﷺ كما يقول عنه الإمام على رضى الله عنه : دائم البشر سهل الخلق ، وكان أكثر الناس ابتساماً فى وجوه أصحابه ، وتعجباً مما تحدثوا به ، ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه . (أى مقدمة ضروسه) .

وذكر وقد روى الصحابة ــ كما جاء فى كتاب «أخلاق النبى» للمرحوم أحمد الحوفى ــ : أن النبى كان أضحك الناس ، وأطيبهم نفساً . وبعضهم وصفه بأنه يبتسم ، وبعضهم بأنه كان يضحك بملء فيه حتى تبدو نواجذه ، لكنه إذا جرى به الضحك

واستمر ، كان يضع يده على فمه ، حتى لا يظهر داخل الفم من ضروس وغيرها .

وكان الرسول يقول لأصحابه : «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كلّت عميت . وكان الرسول ﷺ يمزح مع أصحابه ، ولكن لايقول إلا حقاً ، ويستعمل التورية فى كلامه ، كقوله لا مرأة عجوز سألته أن يدعو لها بالجنة ، فقال لها : «لاتدخل الجنة عجوز» ففزعت واغتمت ولكنه أدركها فقال لها : «ألم تقرئى قوله تعالى ﴿ فجعلناهن أبكاراً ﴾ أى أن النساء يحولهن الله فى الجنة إلى شابات ، فزال عنها غمها .

وكانت عنده امرأة مرة فمازحها وقال لها : الحقى بزوجك فإن فى عينيه بياضاً ، ففزعت وقامت سريعاً للبيت متلهفة ، فسألها زوجها ماذا ؟ قالت : إن رسول الله يقول إن فى عينيك بياضاً . فقال : وماذا فى هذا حتى تفزعى ؟ نعم فى عيني وعينيك وعيون الناس جميعاً بياض وسواد لا لمرض . . وضحكوا .

وكان للرسول ﷺ صاحب يهاديه ببعض طرائف البادية ، والرسول يهاديه ، يسمى زهيراً فدخل الرسول السوق يوماً ، فوجده واقفاً ظهره إليه ، فلم ير الرسول ، فاقترب منه

الرسول ، ووضع يده على عينيه ـ كما يحصل منا أحياناً ، يعنى «حذر أنا مين ؟» ـ وبفطنة زهير عرف إنه الرسول . . فأخذ يحك ظهره فيه . . فرفع الرسول يديه عن عينيه ، وقال له ما حملك على ماكنت تفعله ؟ قال : أردت البركة حتى يمس جسمى جسمك يارسول الله .

فامسك الرسول بيده ، ونادى فى الناس : من يشترى العبد ؟ وفى هذا تورية (أى عبد الله أو رقيق) فقال للرسول : ستجدنى كاسداً ، يعنى لايشترينى أحد ، فقال له الرسول : لكنك عند الله لست بكاسد .

وكان له صاحب آخر يسمى «نعيمان» يمازحه ويضاحكه ، وهو من البدريين ويعمل معه «مقلب» وجد نعيمان فى السوق جرة عسل مع أعرابى مرة فاشتراها منه ، وأخذه إلى بيت الرسول ، وقال له : خذ الثمن من ههنا . . يعنى من صاحب البيت . . والرسول لايعرف مقدماً شيئاً . . ودخل الرجل بها . . فلما أخذها الرسول وأخذ يقسمها على ظن أن «نعيمان» أهداها إياه ، ودفع ثمنها ، قال له الأعرابى : ألا تعطينى ثمن عسلى ؟ فأدرك الرسول «الفصل» وقال : إحدى هَنات نعيمان . . وسأله : ما حملك على هذا ؟ قال : أردت برك

يارسول الله ، ولم يكن معى شىء . . فتبسم الرسول ، وأعطى الأعرابى الثمن . . وطبعاً أعطى نعيمان .

ومرة جاء رجل إلى رسول الله راكباً ناقته فتركها خارج المسجد ، ودخل على الرسول . . ومر نعيمان مع جماعة فاقترحوا عليه أن يأخذ الناقة ويذبحها ليأكلوا منها ، والرسول يضمن للرجل ثمنها وهم فى شوق لأكل اللحم . وفعل نعيمان ، فلما خرج الرجل لم يجد ناقته ، فعلا صوته : أين ناقتى ؟ وسمع نعيمان ، فبادر بالهرب واختفى فى حفرة ، ووضع عليه قشاً ، وخرج الرسول على صوت الرجل ، ووجد أصحاب نعيمان واقفين فسألهم : من فعل هذا بناقة الرجل ؟ فقالوا بصوت عال يسمعه نعيمان المتخبىء : لانعرف يارسول الله ، بينما يشيرون بأصابعهم إلى مكان نعيمان ، فذهب إليه الرسول وأمسك به وقد تعفر وجهه وثوبه وقال له : ماحملك على ماصنعت ؟ قال : الذين دلوك علىّ يا رسول الله . هم أمرونى . فجعل الرسول يمسح عن وجهه التراب ويضحك . ثم غرم الرسول ثمن الناقة .

ومرة خرج أبو بكر رضى الله عنه فى تجارة له إلى بصرى فى الشمال ، ومعه نعيمان بن عمر الأنصارى هذا ، وسويبط بن

حرملة . . وكلاهما بدرى . وكان سويبط على زاد أبي بكر ، أى يهيىء له الطعام ، فقال له النعيمان : أطعمنى . فقال : لا ؛ حتى يأتى أبو بكر ، فقال لسويبط : لأغيظنك . . مثلما نقول : «سأوَرِّيك» . فمروا بقوم . فقال لهم نعيمان : تشترون منى عبداً ؟ فقالوا : نعم . فقال لهم : إنه عبد كثير الكلام ، وسيقول لكم : لست بعبد ، وإنما أنا رجل حر ، فإذا كنتم ستصدقونه فلا تشتروه من الآن . . ولا تفسدوا علىّ عبدى .

قالوا بل نشتريه ، ولا نعبأ بكلامه ، فاشتروه منه بعشر نياق شابة قوية ، فأخذها وساقها أمامه حتى عقلها . ثم قال لهم : دونكم . هو هذا العبد ، فخذوه . فقالوا له : تعال قد اشتريناك . . فأخذ يفهمهم أن صاحبه كاذب ويمزح ، وأنا رجل حر الخ . . فقالوا له : إنا عرفنا خبرك وحالك منه ، وطرحوا الحبل فى عنقه ، وذهبوا به . . فلما جاء أبو بكر أخبره نعيمان ، فضحك وذهب هو وأصحابه للقوم ، وقالوا لهم : إن نعيمان كان يمزح ، وردوا إليهم نياقهم ، واستردوا منهم «سويبط» .

ثم لما قدموا على رسول الله ﷺ فى المدينة ، أخبروه الخبر . فضحك حولاً كاملاً ، أى كلما تذكر هذا «الفصل لأنه كان فى السنة الأخيرة من حياته ﷺ .

وكانت واحدة تسمى «سويداء» تأتى إلى السيدة عائشة وتضحكها والرسول يضحك إذا سمعها . فغابت عن البيت فسأل عنها الرسول ، فقالت له : إنها مريضة ، فذهب إليها يعودها ، فوجدها قريبة من الموت ، فقال لأهلها : إذا ماتت فأخبرونى .

فلما ماتت أخبروه ، فجاء ﷺ وصلى عليها وقال : «اللهم إنها كانت حريصة على أن تضحكنى فأضحكها فرحاً» .

وجاءه أعرابى مرة ، والرسول متغير اللون غضبان ، فأراد أن يسأله ، فقال له الصحابة ، لاتفعل فإننا لم نره قبل على هذه الحالة ، فقال الأعرابى : دعونى ، فوالذى بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يبتسم فقال : يارسول الله بلغنا أن الدجال يأتى الناس بالثريد ، وقد هلكوا جوعاً ، أفترى لى بأبى أنت وأمى ، أن أكف عن ثريده ، ولا آكله ، تعففاً وتنزها ، حتى أهلك جوعاً ، أم أضرب فى ثريده حتى إذا تضلعت وملأت بطنى شبعاً آمنت بالله وكفرت بالدجال ؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت منه نواجذه «ضروسه» وقال له : بل يغنيك الله بما يغنى به المؤمنين[1] .

---

(١) عن كتاب «أخلاق النبى» للمرحوم الدكتور أحمد الحوفى ص ٣٩٨ وما بعدها . طبعة دار نهضة مصر القاهرة ١٩٧٧ م .

وهكذا كان الرسول هاشاً باشاً يضحك مع أصحابه ، ويقبل منهم المزاح ، حتى ولو كان ثقيلاً مثل مزاح الناقة والعسل ، وكلما ذكر حادثة مضحكة ضحك لها .

فلا داعى إذن لبعض الشباب أن يظهروا تدينهم بجهامة الوجه واكفهراره، وتكلفهم الغلظة حتى يظهروا أنهم متدينون !!

الاعتداء على الأموال

ويؤسفنى كثيراً وأغتم حين يذكر عن بعض هؤلاء الدعاة ولاسيما من علمائهم أنهم يدعون أتباعهم للاعتداء على مال غير المسلمين معتبرين أنه فىء وغنيمة لهم كما نشرت المصور مرة عن أحد الكبار من علمائهم ، وملت إلى تصديق الخبر ، لأن مثل هذه الحوادث قد وقعت من بعضهم . ولكنى كنت أرجع وأقول ليس من السهل على عالم كبير من علماء الأزهر أن يصل فى دعوته إلى هذا الحد ، وقد درس أن «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» وهو طالب ، وأن دماءهم وأموالهم فى أمان ، لايجوز الاعتداء عليها ، والرسول ﷺ يقول : «من آذى ذمياً أو معاهداً فأنا

خصيمه يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته» أى غلبته .
بل أمرنا الله بالبر بهم لمجرد أنهم لايقاتلوننا ولايعينون أحداً على قتالنا ، ولو كانوا غير مواطنين لنا ، فما بالنا بالمواطنين الذين نتجاور وإياهم ، ونتعاون على الحياة نحن وإياهم ، وربما كانوا أسبق إلى نجدتنا من أقرب الناس لنا ؟ .

وهم يتولون معنا الوظائف العامة ، وفى يدهم مصالح الدولة ، ومصالحنا ، فكيف نعتدى أو نحرض بالاعتداء عليهم ؟ وكأنهم مهدرو الدم والمال !! مع أن الإسلام عصمهم وعصم مالهم ؟ .

لا أعتقد أن هذا قد غاب عن علم العالم الفقيه ، ولا عن علم أنصاف العلماء . . ولكن ربما اختلط فهمهم لهذا مع بعض الآيات ، لاسيما تلك التى تنهى عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، ﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض** ﴾ [المائدة] أو التى تنهى عن اتخاذ المؤمنين أولياء من الكافرين ، أو تنهى عن اتخاذ بطانة من دونكم . . الخ . . ولهذا أحب أن أضع أمام الشباب خاصة هذا البحث عن هذا الموضوع . . حتى لاتختلط مفاهيم القرآن على أحد . .

من الذين نهانا الله عن موالاتهم ؟

فما الذى يحدد علاقة المسلمين بغيرهم ، ومن الذين نهانا الله عن موالاتهم

لقد وردت فى هذا الموضوع آيات يحسن بنا أن نضعها أولا أمام أعيننا ، ثم نستعرض الأسباب التى نزلت بشأنها ، وعلى ضوء هذا يمكن أن ننفذ إلى المراد منها ، وإلى مواضع تطبيقها ، حتى لانشط فى الاستشهاد بها فى مقام غير مقامها .

وقد جاء النهى فى هذه الآيات عن اتخاذ عدو الله وعدو المسلمين أولياء ، أو عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، أو عن اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أو عن اتخاذ بطانة من دونكم . . أو عن موادة المؤمنين من حاد الله ورسوله . وهذه الآيات نذكرها تباعاً ونذكر معها ما قيل فى سبب نزولها ، وفى الجو الذى نزلت تعالجه لأنه يحدد الهدف منها أو يقربه إلينا . . .

ولا نريد أن نسبق إلى القول برأينا فى هذه الآيات قبل أن نذكر ما دلت عليه ، وسبب النزول ، ليكون حكمنا الأخير مقترناً بحيثياته حسب توفيق الله . . .

لماذا أقدم هذا البحث الآن ؟

ولقد كتبت فى هذا الموضوع أعنى «علاقة المسلمين بغيرهم» ربما عدة مرات ، وكان أولها فى أوائل الخمسينات فى مجلة الحج التى كانت ولاتزال تصدر فى مكة ، ثم نشرت ذلك فى كتاب صدر سنة ١٩٥٩ على ما أذكر . . وربما كتبت عن ذلك بعد هذا مرات حسب الحاجة للبيان و الكتابة .

والآن وأنا بصدد كتابة تفسير للقرآن ، تناولت سورة الممتحنة وقد افتتحت بقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم . . الآية** ﴾ فوجدتنى بعد أن كتبت تفسيرها المناسب للنشر فى جريدة «السياسى» أسبوعياً وجدتنى فى حاجة لمراجعة أوفى للآيات المشابهة لهذه الآية وظروف نزولها ، لأن سورة الممتحنة صريحة فى النهى عن اتخاذ الأعداء أولياء ، وهذا أمر طبيعى لايمكن لأحد أن يعترض عليه ، لأنه متفق مع الطبيعة البشرية ، وعلاقة الناس الطبيعية بعضهم ببعض ، فالقرآن فى هذا لايتجنى ، ولكنه ينبه واحدا أو جماعة ، خالفوا هذه الطبيعة وخرجوا

عليها ، وقرن النهى ببيان السبب ﴿ عدوى وعدكم ﴾ ليقنع القارئ والسامع بكلمات وجيزه معدودة تبين السبب فى هذا النهى لكنه فى الآيات الأخرى جاء إما بقوله ﴿ لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ﴾ أو ﴿ لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ أو ﴿ لاتتخذوا بطانة من دونكم ﴾ وهذا غير ﴿ عدوى وعدوكم ﴾ فيشمل الكافرين عموما ، ويشمـل اليهود والنصارى عموما .

وإذا كان عدم اتخاذ العدو ولياً شيئاً ظاهراً وفى غاية السلامة فإن فى التعميم فى الآيات الأخرى ما يستدعى الإيضاح . .
أولا : لكلمة «أولياء» ومعناها ، وكلمة «بطانة» ثم المراد بالكافرين ، واليهود والنصارى وهل هى على عمومها أو لا ؟ .

وقد أردنا أن نقدم هذا البحث الحساس ضبطاً للأفكار وللفتاوى التى تنطلق من هنا وهناك فى هذا الموضوع دون وعى بمعانى الآيات وأهدافها ، ودون وعى بالعالم الذى نعيش فيه ، ولا وعى بالتزامنا نحو عرض الإسلام على حقيقته عرضاً طيباً وطبيعياً دون التجنى عليه بآراء متطرفة أو غير صحيحة تشوهه وتسىء إليه .

ولا داعى لأن أثبت هنا بعض الأفكار والفتاوى اللامسئولة التى تحرف القرآن عن مواضعه ، فالقارىء يعرف ما أشير إليه .

ولنبدأ بعرض الآيات التى تناولت هذا الموضوع :

١ ــ نذكر أولاً هذه الآية الصريحة الحاسمة ﴿ يأيُّها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء .. ﴾ وقد نزلت لأن أحد الصحابة البدريين ــ حاطب بن أبى بلتعة ــ رأى أن تكون له يد عند المكيين يردونها له فى حسن معاملتهم لأسرته الضعيفة التى لاتزال فى مكة . فكتب لهم سراً يخبرهم بأن الرسول يتجهز لحربهم ، وكان الرسول كقائد للمسلمين يحب أن يباغت أهل مكة ، قبل أن يستعدوا ليضمن الانتصار بأقل التضحيات فى البلد الحرام .

ولأن الله يحرس هذا الهدف أخبر رسوله بما كتب به حاطب ، وسلمه امرأة كانت مسافرة لمكة ، فأرسل وراءها «علياً والمقداد» رضى الله عنهما ، فأتوا بالكتاب من بين ضفائر شعرها بعد أن هددوها .. وكانت خيانة يستحق حاطب جزاءها ، ولكن الرسول الرءوف الرحيم بأمته ، والحكيم فى اتخاذ قراراته ، رأى أن يعفو عنه بعدما سمع عذره وصدقه ، تقديرا لسابقته وبلائه

مع الرسول والمسلمين فى غزوة بدر . . وقال له ولمن حوله من المتحمسين لمعاقبته : «لعل الله أطلع على أهل بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» ليخفف من الحملة عليه ، ويذكر السبب الذى من أجله عفا عنه .

لكن الله لم يترك المناسبة تمر دون أن ينزل فيها قرآناً يظل حاكماً للعلاقات إلى يوم القيامة ، فأنزل الآيات من أول سورة الممتحنة ، نهى فيها عن أن يتخذ أحد من المسلمين أعداء الله وأعداء رسوله والمؤمنين ولياً يفضى إليه بالأسرار الخاصة بالمسلمين ، والتى يضرهم إفشاؤها ، وذكر مع هذا النهى القاطع حيثياته ، فهؤلاء الأعداء بمكة قد كفروا بما آمنتم به ، وأخرجوا الرسول وأخرجوكم من وطنكم مكة ، لا لذنب إلا أنكم آمنتم بالله ربكم . . ﴿ إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ﴾ فلا ينبغى لأحد منكم أن نجد منه موقفا بإعطائهم سراً من أسرار المسلمين ، وهم إن ظفروا بكم فلن يبقوا على أحد منكم ﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ، لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم ﴾ .

وهكذا أعطى المسلمين درساً عنيفاً ، وحذر أن يقع أحد فيما وقع فيه «حاطب» ويفشى سراً إلى الأعداء .. ولا أظن ولا يستطيع أحد مهما يكن متحاملاً أن يظن أن هذا التوجيه غير طبيعى ، فالعدو الذى يتربص بك لايجوز أن تطلعه على سر يفيده فى الإيقاع بك .. على أى مستوى يكون عليه هذا العدو وتكون ..

أليس كذلك ؟ بلى .. لكن الله سبحانه بعد آيات من هذه الآية بين حكم الذين يسالموننا منهم فقال ﴿ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ ففرق بين الحالتين ، وأعطى كل حالة ما تستحقها .. وهذا هو العدل ..

ونأتى للآيات الأخرى ونبدأ بآية آل عمران الأولى فى هذا الصدد

٢ ـ ﴿ لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴾ الآية ٢٨ .

فنجد المفسرين يذكرون لها أسباباً شبيهة بسبب نزول آيه

الممتحنة ويتكلمون عن حالة كانت تلم ببعض المسلمين سليمى النية ، حديثى الإسلام ، حين كانوا لايجدون بأساً فى أنْ يطلعوا اليهود الأعداء ـ كبنى قينقاع حين تأزمت العلاقة بينهم وبين الرسول ـ على بعض الأسرار ، أملا فى أن يمدوهم بقرض مثلاً . . أو لأنهم منافقون وفى قلوبهم مرض وحقد على الرسول والمسلمين ، ولهم حلف سابق مع اليهود ، فكانوا من أجل ذلك يوادونهم ، ويبلغونهم مايمكن أن يصلوا إليه من أسرار المسلمين وأحوالهم . فنزلت الآية تضع هذه القاعدة فى صورة النهى ، ومن خالفه يكون قد خرج عن الطبيعة . . ﴿ **ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء** . . ﴾ ويستحق أقصى وأقسى عقاب . .

فالآية إذن فى شأن الصلة بالأعداء أيضاً وإعطائهم أسرار المسلمين ، ولم يكن الكافرون فى بدء الإسلام وزمن الرسول إلا أعداء يتربصون الدوائر بالمسلمين فلا يصح للمسلمين أن يوالوهم ، ويتخذوهم موضع ثقتهم وأسرارهم ، ويستمر الحكم بالنسبة للكفار الأعداء .

٣ ـ وننتقل إلى آية أخرى من سورة آل عمران رقم ١١٨
﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً**

ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر . . الآية ﴾ والنهى عن اتخاذ هؤلاء بطانة كالنهى عن اتخاذهم أولياء ، لأن بطانة الإنسان أو الحاكم خاصته التى يستمع لكلامها ، ويطلعها على دخائله . والأولياء هم المقربون للإنسان المتناصرون معه على ما سيأتى شرحه بزيادة . .

والآية واضحة فى أن النهى عن اتخاذ البطانة إنما هو من هؤلاء الأعداء الذين لا يدخرون وسعاً فى إيذائكم والتعنت معكم ، ويتمنون لكم الشر ، حتى يفيض بعض ذلك على ألسنتهم فلا يستطيعون كتمانه ، سواءأ كانوا يهودا أم كفارا . . ومثل هؤلاء كيف يتخذ العاقل منهم بطانة أو أولياء له ؟ وقد بينت الآية أوصافهم ، وأنهم أعداء . فكيف نتخذهم بطانة ؟ هذا مستحيل . . وإلا خالفنا طبائع الأمور وحكم علينا بالجنون .

٤ ـ وفى سورة النساء ١٣٨ ، ١٣٩ يقول الله ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا ﴾ .

فالله يتوعد المنافقين الذين يظهرون إسلامهم ، ويعيشون

وسط المسلمين على أنهم مسلمون ولكنهم حانقون على الإسلام .. يتوعد الله هؤلاء لأنهم برغم مايعلنونه من انضمامهم لصفوف المسلمين ، يتخذون الكافرين المحاربين للرسول أولياء وأنصاراً ومواضع سر لهم ، يكيدون بذلك للمسلمين ، ويرجون عند هؤلاء الكفار النصرة والمساعدة ، كما يتوعد كل من يمسك العصا من الوسط ممن يسلمون ، ويظلون على موالاة أعداء الإسلام على صلاتهم القديمة بهم ، تحسباً لما يأتى به الزمن ، فلربما يحتاجون إليهم .. فالمسلم يجب أن يحدد موقفه بجانب الإسلام من أول يوم . ولذلك يوبخهم الله فيقول : ﴿ أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ وبعد ذلك بآيات قليلة يأتى النهى صريحاً ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾حجة وسبباً فى تعذيبكم ؟

٥ ــ وتأتى بعد ذلك آية المائدة بعد حديث طويل عن اليهود ومشاكساتهم فتقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض .. ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى

أنفسهم نادمين ﴾ ٥١ ، ٥٢ . فهنا ذكرت اليهود والنصارى ، وفى الآيات الأخرى ذكرت الكافرين أو الأعداء .. وقد ذكر ابن كثير نقلاً عن عكرمة : أنها نزلت فى أبى لبابة من أصحاب الرسول حين أرسله لبنى قريظة ــ وكان صاحباً لهم ــ بعد خيانتهم للرسول ، فسألوه : ماذا سيفعل الرسول بهم ؟ فأشار بيده لحلقه ، يعنى أنه سيذبحكم .. وكأنه كان يستثيرهم للمقاومة ، وقيل انها نزلت فى عبد الله بن أبى بن سلول ــ رأس المنافقين ــ حين انضم لليهود سراً ووعدهم بالمعاونة ، وهو يظهر أنه مسلم أمام الرسول والمسلمين ، فلما انكسروا ، أخذ يدافع عنهم بحرارة ، ويطلب من الرسول العفو عنهم ويقول : إننى امرؤ أخشى الدوائر ، وأعمل حساباً للأيام ، فلا تخرجوا بنى قينقاع اليهود من ديارهم الخ .. وذكر السيد رشيد رضا فى تفسير المنار جـ ٦ ص ٤٢٥ أن بعض المسلمين كانوا يكاتبون بعض معارفهم من نصارى الشام بأخبار النبى ــ يمنون عليهم بهذا ــ لتكون لهم يد عندهم ، يحتاجون إليها يوماً ، وكان هؤلاء المسلمون من ضعاف الإسلام ، يعنى من المنافقين ، ثم يقول السيد رشيد بعد ذلك :

«الظاهر أن الآيات نزلت بعد تلك الوقائع وغيرها مما ذكروه إن صحت الروايات ، وأن معنى جعلها أسباباً لنزولها أنها نزلت

فى المعنى الذى ينتظمها ، وهو النهى عن موالاة النصر والمظاهرة لهؤلاء الناس إذ كانوا حرباً للنبى ﷺ والمؤمنين ، وكانوا هم المعتدين فى ذلك ، فإن النبى لم يقاتل إلا من نصبوا أنفسهم لقتاله . . ومعناها عام فى كل حال كالحال التى نزلت فيها» .

ومن هذا نفهم أن الآية نزلت فى نهى المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى المحاربين للرسول المتربصين به ، أولياء ، يناصرونهم ويمدونهم بما يقوى شأنهم من أسرار وغيرها . . كما نهى الله المؤمنين عن اتخاذ الكافرين الأعداء أولياء . .

فتكون العلة فى عدم اتخاذ الكافرين واليهود والنصارى أولياء ، أنهم أعداء محاربون للرسول والمؤمنين . . وعدم موالاة الأعداء وعدم مساعدتهم ومدهم بما يقويهم أمامنا ، ويمكنهم منا ، أمر مقرر عند جميع الناس فى أى مكان وفى أى زمان . . وهو من مقتضى الطبيعة البشرية السلمية . فلا يمكن أن يعاب الإسلام بإصدار هذه التعليمات ، فهى التى كانت تجب أن يكون ، وقد التزمها فعلاً المؤمنون الصادقون ، وتبرؤوا من صلتهم وموالاتهم لليهود حين جد الجد ، وأصبح الأمر أمر اختيار بين الرسول وبين اليهود . .

ولكن بعض الضعاف من المسلمين هم الذين لعبوا على

الحبل أو أرادوا «أن يمسكوا العصا من الوسط» بين الرسول وبين الكافرين واليهود والنصارى الأعداء ، فنزلت هذه الآيات فى حسمها تنهى عن هذا الموقف المائع أو الخائن ، إن كانوا فعلاً مؤمنين صادقين ولذلك نجد آية أخرى حاسمة حسماً صريحاً فى آخر سورة «المجادلة» تقول : ﴿ لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . . الآية ﴾ وقد جاءت بصورة النفى لأن هذا هو الطبيعى ، أو يجب أن يكون كذلك .



والنتيجة لهذا

والنتيجة النهائية لهذا ـ كما أفهم ـ هى تحذير كل فرد من أفراد المسلمين عن الاتصال بالأعداء المحاربين لدولته ولدينه ، اتصال مودة وموالاة ومناصرة ، بإفشاء أسرار أو غيرها ، باعتبار أن ذلك ضار بالدولة وبالدين ، ويؤدى إلى تغلب الأعداء وانتصارهم علينا . . وأن من يفعل ذلك من المسلمين يكون قد انسلخ عن أمته وعن دينه ، وأصبح فى عداد الأعداء ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ ﴿ **ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء . . الآية** ﴾ .

وهذا هو الموقف الطبيعى الذى تتخذه كل دولة أو كل مجتمع

تجاه أفرادها الذين يخونونها ويتصلون بأعدائها ويمدونهم بما يقويهم عليها .. مما تدل عليه كلمة ﴿ أولياء ﴾ وكلمة «بطانة» .

فالأولياء جمع ولى ، وهو الذى تقربه إليك ويليك فلا يكون هناك فاصل يفصل بينك وبينه فى أمورك الخاصة والعامة .. ولا يكون هناك أى اعتبار يحول دون الإفضاء إليه بكل ما فى قلبك فيكون موضع سرك واستشارتك . يقول الراغب الأصفهانى فى كتابه «مفردات غريب القرآن» : الولاء والتوالى أن يحصل شيئان فصاعدا حصولاً ليس بينهما ماليس منهما – أى حصولاً متصلاً غير منفصل بفاصل ما – ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ، ومن حيث النسبة ، ومن حيث الدين ، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد . والولاية : النصرة . ثم استشهد على ذلك بآيات كثيرة من القرآن الكريم .

وفى معنى ذلك «البطانة» فبطانتك هى خاصتك المقربة إليك ، دون أى حاجز ، المطلعة على أسرارك ، وتستمع إليها وتتأثر بها ، وتفضى إليها بخاصة نفسك ، وهى بمعنى كلمة

«وليجة» التى جاءت فى الآية ١٦ من سورة التوبة ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾ بمعنى بطانة تتدخل فى أمورك ، وتحول بينك وبين الاتصال الصافى المباشر القوى بالله ورسوله . . وهى من ولج ولوجًا . . بمعنى : دخل . . وهى كبطانة الثوب التى تكون بين بشرة الجسم وبين الثوب . . فتكون أقرب للجسم من الثوب نفسه . .

وقد روى البخارى والنسائى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «مابعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تامره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصم الله» وفى حديث آخر «إذا أراد الله بالأمير خيراً رزقه بطانة خير إن نسى ذكرته ، وإن ذكر أعانته ، وإذا أراد بالأمير غير ذلك رزقه بطانة سوء ، إن نسى لم تذكره ، وإن ذكر لم تعنه» .

ومن هذا ومما نعرفه ، نفهم سر النهى عن اتخاذ أحد من الأعداء : بطانة ، أو وليجة ، أو ولياً .

المعاملات العادية

وإذا كان النهى فى هذه الآيات عن موالاة الأعداء ومناصرتهم وهذا أمر طبيعى فهل تكون مجرد المعاملة العادية التى لا تؤدى إلى تقوية العدو فى أى شأن من شئون حياته لا شىء فيها ؟ نعم . لاشىء فى تبادل المصالح مادام الأمر قاصراً على هذا . كأن يحتاج المسلمون فى المؤونة مثلاً إلى شىء مما عند اليهود ، فلا بأس أن يتعاملوا معهم فيه . . وكأن يتحدثوا معهم فى شأن دينهم ومزاياه . . مجرد صلة لاتضر بمصالح المسلمين . . وقد كان الرسول ﷺ يتعامل مع اليهود الذين ظلوا فى المدينة إلى وفاته .

ثم إن هذا الخطر إنما هو على الأفراد والجماعات دون علم الدولة ، وفى حالة قيام العداوة أو الحرب . أما الدولة فلها أن تتصرف حسب المصالح العليا للمسلمين وهى أدرى بمسالك هذه المصالح . فلها أن توقف الحرب والعداء ، وتعقد صلحاً . . ولها أن تتعاون مع أعداء الأمس ، وتتعاهد معهم على عدو مشترك ، أو فى أمور الحياة العامة إن وجدت مصلحة فى ذلك . وقد حالف الرسول كفار المدينة ، ويهودها على التعايش

السلمى والدفاع المشترك عن المدينة ، كما تحالف مع مشركى بنى خزاعة على المناصرة ، وحارب قريشاً وفتح مكة ، لأنهم نقضوا العهد الذى بينهم وبين الرسول باعتدائهم على حلفائه من بنى خزاعة ، وحارب اليهود وأخرجهم من المدينة بعد أن نقضوا عهدهم معه . .

فالدولة تتصرف سلماً وحرباً حسب المصالح العليا للمسلمين ، وعلى المسلمين أن يقفوا معها ولا يخونوها فيسالموا من تسالمهم ، ويكونوا حرباً على من تحاربهم .

والدولة الإسلامية لاتعادى أحداً أو أمة لدينها ، ولكن لموقفها العدائى من الإسلام وأمة الإسلام . . فإن استطاعت حرب عدوها وكسر شوكته فعلت ، وإلا تصرفت حسب طاقتها فلا تدخل فى حرب معه تجنى بها على المسلمين وتزيد الطين بلة فتمكنه منها أكثر مما هو متمكن . . وتضعف نفسها ومصالحها أكثر مما هى ضعيفة ، بل إذا اقتضت المصلحة أن تدفع شيئاً لعدوها لتهادنه فعلت كما حصل لبعض حلفاء بنى أمية مع الروم (انظر الإدارة الإسلامية لمحمد كرد على ص ٩١ بطبعة مصر ١٩٣٤) .

والدولة الإسلامية تسالم كل دولة تسالمها ، وتتعامل معها ،

بصرف النظر عن دينها المخالف . فالذى يحكم العلاقات بينها وبين غيرها ، هو تصرف الغير إزاءها . . وهى تعامله بالمثل . . وكذلك علاقات المسلمين كأفراد بغير المسلمين ، فتحكمها أولاً علاقة الدولة المسلمة بغيرها من الدول ، وعلى الأفراد أن يلتزموا بعلاقة دولتهم ونظرتها ، ولا يعملوا عملاً يضر بمصالحهم ومصالحها . . كما تحكمها علاقة الغير بهم ، فهم لايقيمون علاقتهم على أساس الدين فى الحياة ، بل على أساس تبادل المصالح ، وعدم العدوان ، فالذى يسالمهم ويتعامل معهم تعاملاً مستقيماً يعاملونه مثل معاملته ، ومن اعتدى عليهم قاطعوه ، أو عاملوه بحساب ، رداً على معاملته . وهذا كله قائم على مبادىء وضعها القرآن الكريم وبينها رسول الله بتصرفاته ﷺ .

فالقرآن الكريم يقول ﴿ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ (الممتحنة : آية ٨) .

ويقول ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ (النساء : ٩٠) وقد تصرف الرسول فى حياته والصحابة من بعده على هذا الأساس .

فلم يقم دولته ولا علاقته مع غير المسلمين على أساس الدين والمخالفة فيه ، فيحارب كل من خالفه فى دينه ، مهما يكن موقفه السلمى منا . . بل أقام هذه العلاقة على أساس موقف الغير منا ، ومعاملته لنا : مسالمة أو معاداة . . فمن سالم سالمه ، ومن عاداه حاربه أو وقف منه موقف العدو وناوشه ، حتى يستطيع منازلته والتغلب عليه . .

وفى ظل السلام مع أية دولة تسالمها الدولة الإسلامية ، يجرى التعامل حراً بين المسلمين وغير المسلمين ، ومن باب أولى يكون التعامل الحسن دائماً مع غير المسلمين من أبناء الوطن ، لا دخل لاختلاف الدين فى هذه المعاملة . بل يحكمها مايحكم المعاملات عادة بين الناس «ولهم ما لنا وعليهم ماعلينا» شرعاً . ومن الخطأ الفادح فى حق الإسلام أن يدعى مسلم أن الإسلام يمنع التعامل مع غير المسلمين من أبناء الوطن أو من غيرهم ، أو يمنع مصادقتهم والتعاون معهم فى شركة أو غيرها . مستدلاً ــ خطأ ــ بالآيات التى سبق أن قلنا إنها خاصة بالأعداء المحاربين .

إن الإسلام يطلق الحرية للمسلم فى إقامة علاقاته ومعاملاته مع غير المسلمين فى حدود المصلحة العامة ، وفى حدود

مصالحه ، فيما لايمس المصلحة العامة . ولا ينفرد الإسلام ــ كما عرفنا ــ بشيء خاص أو بقيود يضعها على تصرفات المسلمين إلا فى الحدود العامة التى عرفناها ، والتى تسير عليها كل دولة وكل مجتمع حسب القانون الدولى .

ومع هذا الذى قدمناه يبقى تساؤل قائم : هل يصح للمسلم أن يتخذ له صديقاً أو ولياً أو بطانة فى أمر من أموره الخاصة أو العامة من الكفار أو من أهل الكتاب المسالمين ؟

وأقول من منطلق الفهم للآيات السابقة : إن ذلك موكول للمسلم ككل شأن من شئون حياته الخاصة والعامة فى صلته بمن حوله من الناس مسلمين وغير مسلمين على ضوء ما يراه من مصالحه الدنيوية دون إضرار بأمن الدولة .

فللحاكم أن يستعين بغير مسلم يستفيد من خبرته ، ويقربه إليه . ليستعين به فى تحقيق مصلحته كطبيب مثلاً ، أو مصلحة المسلمين العامة ، كخبير فى صناعة أو زراعة أو ناحية علمية أو أية ناحية من نواحى الحياة ، يجد الحاكم فى تقريبه إليه مصلحة وفائدة . . بل يجب على الحاكم والهيئة ذلك متى كان فى هذا مصلحة . . . وللفرد كذلك أن يفعل هذا ، ويشارك ويتعاون مع غير المسلم ، ويتقاربا ، ويتوادا فى أمور حياتهما . ويتأكد

هذا حين يكون كل منهما من أبناء أرض واحدة ، . ووطن واحد ، ومصلحة عامة واحدة . . ومصير مشترك . . فدائرة تحقيق المصالح بين المسلم وغير المسلم مفتوحة للمسلم إلى أبعد مدى ، مادام ذلك لا يضر بمصلحة الدولة ، ولا بالمصالح العامة ولا بالدين شأن علاقته بأخيه المسلم . فهى أيضاً تدور فى هذه الدائرة . . ولا أعلم فى القرآن أو فى الحديث نصاً ينهى عن التقارب والتواد والتحاب بين المسلم وغير المسلم المسالم بل نجد العكس فى الآية التى تعتبر حسن الصلة والبر بهم من الأمور التى يحبها الله ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ .

فما بالنا إذا كان غير المسلم يعيش معنا فى وطن واحد . جاراً ، أو شريكاً أو صديقاً ، وحاملاً لمسئولية الوطن مثلك ومثلى سواء بسواء ، ومؤتمنا على مصالح الوطن وأسراره ، مثل أى فرد فيه . لأن المصير مشترك . . . إن الذين يدخلون الدين فى مثل هذه العلاقة ويفهم أنه يكره أن تقوم بين المسلمين وغير المسلمين ، ولاسيما فى الوطن الواحد مثل هذه العلاقة الطيبة يسيئون إلى الإسلام ونظرته الحكيمة لشئون الحياة . . ويسيئون إلى الوطن ومصالحه .

إننى بالنظرة الإسلامية أنظر إلى المواطنين : مسلمين وغير مسلمين : على أساس جهدهم وإخلاصهم لوطنهم ، وأمانتهم فى تحمل مسئولياتهم ، وحسن علاقتهم بمن حولهم . . وأعطى كل واحد مايستحقه من ثقة أو أجر أو عمل يحسنه . . دون أن أدخل الآيات التى نهت عن اتخاذ غير المسلمين أولياء ، فى هذه الناحية فهى فى شأن الأعداء ، وتطبق فى حالة قيام حرب بيننا وبينهم ، أو فى حالة توقعها ، وتوتر العلاقات معها .

أما من عداهم وما عدا هذه الحالة فالأمر فيها كما قلنا مفتوح لإقامة العلاقات الطيبة المتينة ، والتعاون التام المشترك ، والصداقة والمودة حسب الظروف المحيطة بالحاكم أو المحيطة بالأفراد . وإذا كان هناك ما يروى من حادثة رأى الخليفة الحاكم فيها عزل الموظف الكتابى من رعاية شئون المال فإن هذا العزل يحصل أيضاً للمسلمين إذا بدا منهم تقصير أو خيانة ، أو وجد من هو أقدر منه على إدارة الشئون .

ولقد كان ذلك لنظرة بعيدة من الحاكم ، يريد بها تربية «كادر» من المسلمين فى بدء قيام دولتهم يباشرون مهامها ، ومع ذلك لم تتخذ هذه الحادثة كمبدأ عام فى جميع نواحى الدولة .

ولذلك لا يصح الاحتجاج بهذه الحادثة الفردية التى كان لها

ظروفها ، والتى لم يطبق ماحصل فيها تطبيقاً عاماً فى الدولة ، بل ترك الأمر للتدرج الطبيعى ، وولى غير المسلمين كثيراً من أمور الدولة ، وكانوا يستعملون لغة غير عربية أيضاً حتى تمكنت اللغة العربية ، ففرضت فى المعاملات الرسمية ، كما حدث فى مصر والشام أيام الأمويين وبقى غير المسلمين يتولون الكثير من وظائفها الكبيرة والصغيرة ، بل يصلون إلى الحظوة من الخلفاء فيكلون إليهم أدق الأمور ، ويتخذونهم أطباء خصوصيين لهم ولأسرهم ، ويتخذون منهم وزراء ومستشارين . . دون أدنى حساسية دينية . . ماداموا أهلا لهذه الثقة بعد طول اختبار .

وهكذا الإسلام وهكذا المسلمون الفاهمون الفاقهون ، يعاملون غير المسلمين كما يعاملون المسلمين بالحسنى والذوق ، ويحافظون على حقوقهم وعهودهم وأموالهم ودمائهم كما يفعلون مع المسلمين ويظهرون لهم وجه الإسلام الحسن بالأخلاق والمعاملة الحسنة ، فإن الإسلام انتشر عن هذا الطريق ، وجذب المسلمون غيرهم إليه بحسن تعاملهم مع غيرهم ، وحرصهم على الأخلاق الكريمة معهم .

وكثير من البلاد الإسلامية اليوم لم يصل إليها جيش مسلم حتى لا تكون شبهة أبدا فى تدخل الحاكم أو جيشه المسلم لإجبار

الناس على الإسلام ، إذ لم يكن لهم حاكم مسلم ، ولا وصل إليهم جيش مسلم . مثل كل المسلمين شرقى الهند ، من ماليزيا وتايوان والصين وسنغافورة وأندونيسيا ، ومثل المسلمين فى قلب القارة الأفريقية . فكل هؤلاء دخلوا الإسلام عن طريق إعجابهم بأخلاق المسلمين ومعاملاتهم . . حتى البلاد التى وصلت إليها الجيوش الإسلامية ، يشهد المؤلفون الأجانب أنه لم يحصل إجبار لأحد على الإسلام فيها . . وإنما تركوا الناس وشأنهم فى دينهم ، ولم يضطهدوا أحدا لأنه مخالف لهم فى الدين . . بل إنهم كانوا يحمون الفرق المسيحية من تعدى بعضها على بعض لخلاف بينهم فى المذهب .

فمن الظلم البين للإسلام أن يسىء أحد معاملة غير المسلمين باسم الإسلام ، أو يدعو إلى ذلك . . كما أن من الظلم البين أن يقال باسم الإسلام إن المسلمين يتميزون عن غير المسلمين المواطنين فى الحقوق والواجبات ، والدنيا كلها الآن تحارب التمييز العنصرى وتمقته ، فيأتى بعض الجهلة المتعصبين من المسلمين ، ويصمون الإسلام بهذا التمييز الدينى . . ويسيئون للإسلام أكبر إساءة . . لأن القاعدة الأصيلة فى الدين أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا من حقوق وواجبات دون أدنى تمييز من أجل صفتهم الدينية .

ولقد تحاكم علي رضي الله عنه وهو خليفة إلى القاضي هو ويهودي ، ظهر عنده درع للخليفة كانت قد فقدت ، ولم يكن للخليفة بينة ، فحكم القاضي لليهودي فأخذها ثم رجع ، وقال : «هذه والله درع الخليفة ، وما رأيت عدلاً كهذا ، وأسلم». ولما سمع الخليفة القاضي يقول له يا أبا الحسن . تأثر . . فقال القاضي له : هل تأثرت من الحكم عليك ؟ قال : لا ؛ ولكنك ناديتني بكنيتي ، وهذا تكريم لي ، وناديت خصمي اليهودي باسمه . وهذه تفرقة من القاضي لا أرضاها . . وهكذا روح الإسلام وعدله .

وأحب أن أضع أمامك في النهاية هذه الحادثة التي حصلت في أيام الخليفة العادل الحاسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لتدرك منها مدى حساسية المسلم في معاملة غير المسلمين ، وليعرف غير المسلمين هذا الوجه الإسلامي المشرق ، الذي كشف عنه هذا الوالي المسلم الفاهم لدينه الحريص عليه أمام الخليفة عمر . كان من ولاة عمر رضي الله عنه ، صحابي جليل يسمى «عمير بن سعد» كما جاء في كتاب «الإدارة الإسلامية في عز العرب» ص ٣٣ للمرحوم الأستاذ محمد كرد علي ، نقلاً عن طبقات ابن سعد ، وأسد الغابة لابن الأثير . يقول عنه عمر

رضى الله عنهما : وددت لو أن لى رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين به على أعمال المسلمين .

كتب عمر إلى عمير أيام كان عامله على «حمص» : أقبل بما جبيت من فىء المسلمين ، ولما قدم سأله عمر عما عمله قال : بعثتنى حتى أتيت البلد ، فجمعت صلحاء أهلها ، فوليتهم جباية فيئها ، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه (يعنى أنفقه فى حاجة البلد) . ولو نالك منه شىء (لو بقى شىء) لأتيتك به . قال : فما جئتنا بشىء ؟ قال : لا .. قال : جددوا لعمير عهدا .. لأن الخليفة سر به وبعمله .

فقال عمير : لا عملت لك ولا لأحد بعدك .. والله ماسلمت ، بل لم أسلم . لقد قلت لنصرانى : أى أخزاك الله .. فهذا ما عرضتنى له ياعمر ، وإن أشقى أيامى يوم خلقت معك يا عمر . إلى هذا الحد . فهذا الوالى المسلم العظيم الوالى على حمص وحاكمها يعتبر نفسه شقياً لخروجه على آداب دينه حين قال لنصرانى لسبب من الأسباب «أخزاك الله» ويعتبر هذه الكلمة منه سبباً فى شقاوته ، ويمتنع عن أن يتولى عملاً بعد هذا حتى لايقع فى ذنب كهذا الذنب .. وهو مجرد كلمة قالها لنصرانى ...

وعمر يسمع منه ، ويستجيب له .

فأى سمو هذا الذى تأدب به هذا الصحابى المسلم ومن أى منبع شرب منه هذا الأدب إلا دينه ؟ .

وبأى حكم نحكم به على الذين يتصورون أن الإسلام يبيح لهم الاعتداء على غير المسلمين ، ولو كانوا مواطنين ومسالمين ومتعاونين معنا ، وشركاء فى سراء الحياة وضرائها ، لمجرد أنهم غير مسلمين ؟ أى جرم يرتكبونه فى حق الإسلام ، وحق مجتمعهم ؟ وأى ظلم يقترفونه حين يتكلمون باسم الإسلام ، يحرضون المسلمين على الاعتداء على غير المسلمين من مواطنيهم ؟ أو يقبلون من أحد هذا الاعتداء ويقرونه ؟ ومع الأسف يدعى بعض هؤلاء أنهم من الدعاه الكبار للدين والغيارى عليه ، ويصدقه من لا يعرفون ، أو يعرفون وفى قلوبهم مرض وغرض !!!

كلام خطير غير مدروس ولا مسئول

ولقد كان من الأفكار الغريبة-العجيبة ، أن يعترض أحد مثقفى هذه الجماعات على المادة ٤٠ من الدستور التى تسوى بين

المواطنين فى مصر مسلمين وغير مسلمين فى الحقوق والواجبات ، بينما نصوص ديننا ، وتراثنا مليئة بالشواهد الإسلامية على هذه المساواة . . فكيف غابت عنهم ؟ وأية سحابة حجبت عنهم هذه الحقائق ؟

ويعترضون أيضاً على اعتبار المسلمين والمسيحيين الوطنيين أمة واحدة !! ولهم ما لنا وعليهم ما علينا . فما هذه النعرة غير الإسلامية ، التى تدعو إلى الاعتراض على أننا جميعاً أمة واحدة فى سراء الحياة وضرائها فى يسرها وعسرها ، فى النهوض بأعبائها ، فى دفع ضريبة الدم والعرق دفاعاً عنها ؟ أمة واحدة فى الحقوق والواجبات ؟ فماذا يريدون ؟ يريدون أن يكونوا جنساً ممتازاً أو متميزاً على جيرانه وشركائه فى هذا الوطن لأنهم مسيحيون أو يهود ، وأنت مسلم ؟ وأى عاقل يقر هذا ؟ وقد وفر لهم الإسلام المساواة مع المسلمين فى الحقوق والواجبات ؟

وماذا تقول إذا نفذت الأغلبية غير المسلمة مثل هذا فى إخوانك الأقلية المسلمة فى دول أخرى ؟

ألا تثور ؟ ألا تطالب بالمساواة ؟

ألا تريد أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، كما أدبنا رسول الله ﷺ ؟

إن هذه الأصوات التى تنطلق باسم الإسلام ، وتقول مثل هذا ، إنما تسىء للإسلام ، وتنفر الناس منه ، ولم يحدث شىء من هذا من المسلمين الصالحين الفاقهين للإسلام ، بل كان الأمر بالعكس ، كانوا منصفين للجميع . .

فهذا اليهودى العجوز الذى مر على الخليفة عمر ، وهو يسأل الناس أن يعينوه على الحياة فيسأله الخليفة : ما الذى ألجأك إلى هذا ؟ فقال : السن والجزية . . فقال له الخليفة : ما أنصفناك يارجل أن أكلنا شبيبتك ثم تركناك عند الهرم . وبادر فأسعفه ببعض المال ، ثم أصدر أمراً إلى خازن بيت المال ؛ انظر هذا وضرباءه ـ أمثاله ـ فحط عنهم الجزية ، وافرض لهم فى بيت مال المسلمين مايعينهم .

من كان هذا اليهودى ؟ إنه رجل كبر ، من اليهود المسالمين الذين آثروا البقاء فى ظل المسلمين ، ولا شوكة له ، والخليفة مسئول عنه ، وعن حياته ، مثل أى مسلم . . ولذلك قال له : ما أنصفناك . . الخ . وكان الإنصاف أن أعفاه من الجزية ، لأنه فقير ، وهى لاتكون إلا على غنى قادر . وفرض له نصيباً من بيت مال المسلمين يؤمن به معيشته كما يفرضه للمسلم .

ثم ألم يقرأ هؤلاء المعاهدة التى عقدها الرسول مع يهودها

ومشركيها حين وصل واستقر فى المدينة ، وسماهم جميعا آمة مع المؤمنين . . وقد جاء فى نص هذه المعاهدة «وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . .» وكذلك ليهود بنى النجار ، وبنى الحارث وغيرهم . .

ونصت المعاهدة على أن أهل المدينة كلهم جبهة واحدة ضد أى مغير عليها «وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين مادامو محاربين» .

أليس هذا الذى فعله الرسول هو وحدة وطنية فى المدينة وجبهة وطنية لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ؟ .

هل يعاب على الرسول ﷺ أنه وحدَ بين سكان المدينة على اختلاف أديانهم وجعلهم وحدة وأمة تدافع عن نفسها برغم اختلاف الدين ؟ .

وهل عند هؤلاء العائبين اسم آخر غير هذا ؟ أمة . وحدة وطنية . هل يريدون أن يجعلوا مصر أمتين وشعبين ؟ ولمصلحة من يعملون ؟ وباسم أى مبدأ يتكلمون ، وهذا هو عمل الرسول الكريم ؟ .

وإذا كان من معانى «آمة» فى اللغة : الجنس ، فنحن أمة .

وأمة محمد : كل من أرسل إليهم أسلموا أم لم يسلموا ، كلهم يطلق عليهم أمة . . فما الذى يضايق هؤلاء . . نحن أمة . لنا ديننا ولغيرنا دينه . هل يضيق بنا الوطن وقد اتسعت المدينة للمسلمين واليهود والمشركين ؟ فكانوا فيها كما قال الرسول : أمة واحدة !! ونحن جميعا وحدة واحدة فى جميع واجباتنا نحو بلادنا ، وفى حقوقنا فى بلدنا . . أليس ذلك هو الخير لنا جميعاً ؟

هل يمكن أن يدلونا على خير فى غير هذا الطريق ؟ .

المسلمون من الإنجليز هناك أليسوا أمة واحدة مع بنى وطنهم المسيحيين ، أليسوا جميعاً وحدة واحدة ، وجنساً واحدا ؟ متساوين فى الحقوق والواجبات ؟ ويدافعون جميعاً عن بلادهم باعتبارها وطنهم ؟

وماذا تريدون بالإسلام ، وعلى أية صورة تريدون أن تعرضوه على الأمم لجذب الناس إليه ؟ وهل تريدون أن تخرجوا من بطن الكتب ما فيها من تعليمات وسوابق حملت عليها ظروف خاصة من نفسية الحاكم ، أو غيرها . . فتحكمنا الآن برغم اختلاف الظروف ؟ وبرغم مخالفتها لدين الله ؟

هل يمكن أن تجابهوا بها أحدا من الناس الآن ؟ بعد أن تغيرت الظروف ، وأصبح من المحال مهما نكن أقوياء أن

ننفذها ، بل ولا مجرد ذكرها ، هل تلزم غيرك بزى خاص ؟ هل تلجئهم إلى شمال الطريق ؟ هل تمنعهم من ركوب الخيل أو السيارات ؟

إن بعض المعاهدات التى عقدها أبو عبيدة رضى الله عنه بعد فتح الشام اشتملت مثلاً على بند : أن يستضيف غير المسلمين المسلم الذى يمر عليهم فى بلدهم ويحتاج إلى ضيافة ، لمدة ثلاثة أيام .. وقد كان لهذا البند سبب يدعو إليه وقتذاك ؛ هو أن المسلمين قلة أو معدومون فى هذه البلاد حين فتحها ، والبلاد ليس بها مطاعم ولا فنادق يأوى إليها المسلم المار بها .. فكان من الضرورى أو من الاحتياط أن يأخذ أبو عبيدة هذا الشرط لاتعسفاً ، ولكن لئلا يضيع المسلم الذى تلجئه الظروف للمرور بهذه البلاد .

فإذا تغير الوضع ، ووجد مسلمون يمكن أن يستضيفوا أخا لهم ، أو كان هناك مطاعم وفنادق ، يصبح هذا البند لا داعى له .. ولايجوز لأحد أن يتحدث به وإلا فهل من الممكن أن نتمسك به الآن ؟ ومثل ذلك ؛ مَنْعهم من حيازة السلاح عند الفتح . فإن ذلك كان لظروف أمنية يتخذها الفاتح ، وهذا قد يتخذ الآن من أى فاتح يدخل أرض دولة أخرى ، فإذا تغيرت

الظروف ، وأصبح للدولة نظام أمنى مستقر وقوانين لحيازة السلاح وحمله . . أمكن أن نتحول للنظام الجديد الذى يشمل المسلم وغير المسلم ، كما هو الحال الآن ، حفاظاً على الأمن العام للدولة ولأفرادها .

ومثل هذا كثير قد يصدره الفاتح أو الحاكم اجتهاداً منه لظروف أمنية عاشوا فيها ، فإذا تغيرت الظروف لم يكن هناك داع للتمسك بها لمجرد أن السابقين اتخذوها ، وقالوها .

دار الحرب ودار الاسلام

ومن القواعد التى وضعها السابقون فى ظل ظروفهم موضوع دار الحرب ودار الإسلام . . فإن هذا التقسيم كان منتزعاً من الواقع الذى كان يعيشه المسلمون وسط العالم المعادى للإسلام ، فكان من التعبير عن الواقع أن يقسم المسلمون العالم إلى دار حرب ، ودار إسلام . . كما كان الإغريق أو الروم يقسمون العالم إلى إغريق أو رومان ، وبربر . . فيعتبرون غيرهم من البرابرة ، وقد أعطى المسلمون أحكاما لدار الحرب ودار الإسلام . . نقرؤها الآن فى الكتب . . ولكن الظروف تغيرت ، ولم يعد هناك معسكران فحسب : بلاد إسلامية ،

وبلاد غير إسلامية أى دار حرب ، وتغير وضع الدول عما كان عليه الأمر من قبل فى صدر الإسلام . فقامت العلاقات السلمية بين الدول ، وتبادلت السفارات ، والمعاهدات . . . الخ . ومن الضرورى أن تتغير التعاريف والمفاهيم ، وتتغير الأحكام . .

فالدول كلها الآن تقريباً بينها علاقات سلمية ، وتبادل للسفراء والقناصل ، ووضعت القوانين التى تنظم ذلك كله . . وأفراد العالم يتنقلون الآن إلى كل مكان وهم آمنون ، وفى ظل قوانين تحكمهم فلم يعد العالم الآن بالنسبة لنا : إما بلاداً إسلامية وإما بلاداً عدوة محاربة ، بل هناك بلاد إسلامية وبلاد غير إسلامية ، لكن بيننا وبينهم معاهدات وتبادل سفارات . . الخ . وقد نكون فى حرب مع دولة منها ، ولا تكون هناك دار حرب ، إلا إذا كان بيننا وبينها حرب فعلية أو شبه حرب . .

هذا هو الواقع . . فيصبح من السفه الفعلى أن نتمسك بالتقسيم القديم الذى كانت له ظروفه التى انتهت تماما . . .

ومن الضرورى أن ننشىء أحكاماً لهذا النظام الجديد ، غير الأحكام التى وضعت من قبل لدار الإسلام ولدار الحرب . . وعلى أساس التعامل بالمثل ، وبمقتضى قوله تعالى ﴿ لاينهاكم الله

عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾[1] .

فدار الإسلام هى البلاد التى تعلن احتضانها للإسلام وتعمل على تنفيذ تعاليمه ، وأحكامه ، ما استطاعت ، ولو قصرت فى بعضها ، وتسعى إلى استكمالها .. الخ .

ودار الحرب هى البلاد التى بيننا وبينها عداء وحرب معلنة أو فى هدنة .

ودار عهد وأمان ، وهى الدول غير الإسلامية التى تقوم بيننا وبينها عهود وعلاقات ودية متبادلة ، ولاتحاربنا ، ولاتعين عدواً علينا .. ولا تنتقص من حقوقنا .

وأساس هذا التقسيم أن الإسلام يعتبر السلم هو الأساس ، ويعتبر الحرب حالة شاذة وطارئة .. ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾[2] .

فمن التعنت وعدم فهم الإسلام فهماً صحيحاً أن نعتبر كل

---

(١) سورة الممتحنة

(٢)سورة النساء

الدول غير الإسلامية دول حرب بالنسبة لنا ، أو نعتبر الدولة الإسلامية التى قصرت فى ناحية إسلامية وعصت ربها فيها دولة غير إسلامية ، فنهدر كل أعمالها الإسلامية وجهودها الإسلامية لأنها لم تنفذ بعض الأحكام . ونسميها دار حرب !! ومن الظلم والاعتداء على الحقيقة أن نسميها دولة جاهلية تعيش فى جاهلية كالجاهلية الأولى قبل الإسلام .. مهدرين كل جوانب الحياة الإسلامية فيها .. كما يذهب بعض الإسلاميين المتشددين .

وليس من الحكمة ولا من مصلحة الإسلام والمسلمين ، ولا من السياسة الشرعية أن نقول عن دولة إسلامية ترصد الأموال والجهود لخدمة الإسلام ، إنها مع ذلك دولة جاهلية ، لافرق بينها وبين حكم فى بلد إسلامى يحارب الإسلام علنا ، كما حصل فى تركيا ، حين سقطت الخلافة ، وحكم مصطفى كمال أتاتورك .. كأنه لا فرق بين من يعمل لخدمة الإسلام ولو قصر وبين من يحاربه علناً .. أو لا فرق بينها وبين دولة غير إسلامية لأنها دولة سموها «جاهلية» !! برغم ماتعمله لخدمة الإسلام !!

الجزية

ولقد كان عجيباً ومثيراً للدهشة أن نرى بعض الأفكار والرءوس الإسلامية ، ترى أنه لكى يكون البلد إسلامياً ، لابد

أن يأخذ الجزية من الوطنيين غير المسلمين ، لأنهم فى كلامهم هذا غير فاهمين ، ولا كلفوا أنفسهم مئونة الدرس والاطلاع ليعرفوا الأحكام الفقهية عن الجزية . ولو رجعوا إلى المصادر الأولى ، ودرسوا لعرفوا أن الجزية لاتتعدى بدلاً نقدياً يدفعه القادرون من الرجال المقيمين فى رعاية الدولة للمشاركة فى موارد بيت المال ، وخدمة المرافق العامة كالزكاة التى يدفعها المسلم لبيت المال ، وجزاء ومقابل أمنهم الداخلى والخارجى بفضل الجنود المسلمين ، لأن الإسلام لايرغمهم على الانخراط فى سلك الجيش . ولكن يأخذ بدلاً نقدياً عن حمايتهم وتأمينهم وتوفير الخدمات لهم .

وليس من العدالة أن يقوم الفرد المسلم بالدفاع عن الدولة ، بالانخراط فى الجيش ، ليوفر للشعب كله الأمن ، ثم يشارك بزكاته فى موارد بيت المال الذى ينفق منه على مصالح الشعب ، بينما غير المسلم يتمتع بالأمن والحماية ، ويتمتع بمرافق الدولة ، ثم لا يشارك فى شيء من ذلك لابجهده ولا بماله . فيكون العبء كله على المسلم ، ويكون هو المظلوم .

فلابد إذن على غير المسلم أن يدفع جزاءاً لتمتعه بالمرافق والأمن ، بدلاً نقدياً يساهم به فى خزينة الدولة التى ترعاه وترعى مصالحه ، . ولذلك سميت «جزية» أى جزاءاً ومقابلاً .

وكانت الجزية أى البدل النقدى معروفة عند اليونان والرومان ، ودولة الروم الشرقية وفارس ، وكان الفرس يسمونها «كزيت» بكاف فارسية نطقها بين الجيم والكاف العربية ، وقد جعلها كسرى على غير المقاتلين من الفرس ، من كبار الزراع والتجار والأغنياء بدلاً من اشتراكهم فى الحرب وتجنيدهم .

ولذلك كان يفرضها على الشاب إذا بلغ العشرين سنة ، إذا لم يشترك فى الحرب ، إذ ليس من العدل أن يتولى الفقراء عبء الدفاع ، بينما القادرون لايساهمون ، ولو ببدل نقدى ينفق منه على الجيش ، وعلى مرافق الدولة . وقد كان عندنا هذا البدل النقدى إلى زمن قريب ، وقد (نزل القرآن بفرضها على أهل الكتاب) الذين تظلهم سلطة الإسلام إذا كانوا قادرين ، كدليل على التزامهم بنظام الدولة ، وخضوعهم لها ، ومشاركة منهم فى أعباء الدولة التى تهيىء لهم الخدمات العامة كالمسلمين ، يؤدونها طوعاً عن رضا ، أو جبراً ، كأية ضريبة . ولذلك حينما يقوم واحد منهم بالانخراط فى الجيش ، أو تقديم أية خدمة له ، ولو بالتخابر على الأعداء ، يعفى من الجزية .

فإذا أخذ المسلمون منهم جزية ولم يقدروا على حمايتهم ، ردوا

إليهم ما دفعوه . . . وأمامنا الوثائق التى صدرت فى عهد الخلفاء الراشدين ، حينما خرج الجيش الإسلامى فاتحاً شرقاً وغرباً . . فهذا هو العهد الذى كتبه القائد خالد بن الوليد فى صفر سنة ١٢ هـ لصلوبا بن نسطونا ، حين ذهب للفرات ، وأوغل فيها ، يقول : «هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، أنى عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلك الذمة والمنعة (ومعنى الذمة أى ذمة المسلمين وعهدهم بالحماية) وما منعناكم (أى حميناكم) فلنا الجزية وإلا فلا» أى لاجزية إذا لم نحمكم من الاعتداء عليكم .

ولما أدى هؤلاء الجزية كتبوا لأمراء المسلمين عليهم يقولون لهم : «إنا قد أدينا الجزية التى عاهدنا عليها خالد على أن يمنعونا وأميرهم البغى من المسلمين وغيرهم» .

فإذا لم يستطع المسلمون القيام بذلك ردوا عليهم أموالهم ، كما جاء فى كتاب الخراج للإمام أبى يوسف وغيره ، وذكر واقعة تدل على هذا ، حين أخذ المسلمون الجزية ، ثم عجزوا عن الدفاع عنهم ، فأمر أبو عبيدة برد الجزية إليهم ، وكتب يقول : «إنما رددنا أموالكم عليكم ، لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم (ونحميكم) وإنا

لانقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ، وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم» .

فلما قال المسلمون ذلك لهم ، وردوا عليهم الأموال التى جبوها منهم قالوا لهم : «ردكم الله علينا منصورين فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً ، وأخذوا كل شىء حتى لا يدعوا شيئاً» .

وأمامنا وثيقة أخرى تدل على أنه إذا عاون واحد منهم المسلمين فى حرب ، فإنه تسقط عنه جزيته . كتب «سويد بن مقرن» أحد قواد عمر رضى الله عنه يقول لمن كانوا فى ناحيته «لكم الذمة ، وعلينا المنعة على أن عليكم من الجزاء فى كل سنة على قدر طاقتكم ، على كل حالم ، ومن استعنا به منكم ، فله جزاؤه فى معونته عوضاً عن جزائه أى جزيته .. الخ» .

وكتب «عتبة بن فرقد» عامل الخليفة عمر رضى الله عنه لأهل أذربيجان عهداً جاء فيه «ومن حشر معهم فى سنة (أى مع الجيش المسلم) وضع عنه جزاء تلك السنة (أى جزيتها) .. الخ»[1]

(١) ارجع إلى كتاب «الخراج» لأبى يوسف فى هذا ، وارجع لكتابى «الاسلام والغرب وجهاً لوجه» موضوع «الجزية» ص ٦٩ .

ومن هنا يتبين بجلاء ووضوح ، أن الجزية ليست تحكما ولا تصغيرا لشأن غير المسلمين ، إنما هى جزاء عادل لما يقدم لهم من خدمات وأمن فى الداخل والخارج . . بدليل أن من قدم أى جهد فى معاونة المسلمين على عدوهم يعفى من الجزية . .

وإلى عهد قريب قبل فرض التجنيد ، كان القادرون فى مصر يدفعون بدلاً نقدياً نظير عدم تجنيد أولادهم . . هذا هو الغرض من الجزية ، ليس تحكما ولا فرض سيطرة ، وليس امتهانا لمن يدفعها ، وإنما هى مساهمة منه فى الدفاع عن نفسه .

فهل درس الذين يلوكون بألسنتهم الآن كلمة الجزية ، ويتطلعون إلى فرضها على غير المسلمين معنا ، هل درسوا قبل أن يتكلموا ؟

إنهم ظنوا أن جبايتها من غير المسلمين إذلال لهم ، وهذه أكبر إساءة يوجهونها لدينهم ، ويخدمون بها أعداء الإسلام . . ولعلهم أخذوا ذلك من قوله تعالى ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ متعلقين ببعض الأقوال التى قيلت تفسيراً لذلك ، لأنها ربما ترضى نفوسهم ، وإلا فمن معانى ﴿ عن يد ﴾ عن قوة وقدرة على دفعها . . ولا يتعين أن يكون معناها تسليمهم

الجزية باليد ، أى يد بيد .. لأن هذا التفسير تحكم ولا معنى له ، وإنما المعنى الجيد أن كلمة «يد» أفادت «عن قدرة» لأنها لايدفعها إلا القادرون .

ولا معنى لأن نقول لهم ونتحكم : كل واحد يسلمنا الجزية بيده ، ويطاطىء رأسه الخ !! .

فقوله ﴿ وهم صاغرون ﴾ ليس المراد بها : وهم أذلاء ، لأن الإسلام لايذل واحداً خيرناه بين الإسلام أو دفع الجزية ، فاختار الدفع راضياً . فليس لنا عنده بعد ذلك شيء ، إلا أن نكون متحكمين مغرورين .. والله لايشير علينا بذلك ، وهو الذى أمر ببرهم فى آية أخرى .

وإلا فمن معانى ﴿ صاغرين ﴾ راضين مستسلمين فى أداء الواجب عليهم والخضوع للدولة ، فهم لم يعطوها صدقة على المسلمين ، وإنما قدموها واجباً عليهم . فلا يمنون بها على المسلمين ، بل يؤدونها راضين مسلمين بأنهم يؤدون واجباً عليهم ، ويخضعون لنظام الدولة ، كما يؤدى المسلم ما عليه راضياً ، وإلا فجبراً هذا أو ذاك .

ثم إن الوطنيين من غير المسلمين الآن يشاركون فى كل

شيء ، وكل واجب ، والجندى المسيحى مع الجندى المسلم فى خندق واحد ، تختلط دماؤهم ، ويحمون بعضهم بعضا ، إنهم يدفعون ضريبة الدم فى شرف ، ولا يقعدون ليدافع عنهم المسلم . وقد فرضت الدولة التجنيد الإجبارى على كل مواطن صالح لأداء الخدمة ، فلم يصبح هناك معنى لأن يلوك أى لسان كلمة الجزية بعد ذلك ، إلا إذا كان عقلاً فارغاً . . يرمى الكلام على عواهنه دون تبصر ، كمن يرمى النار على السطوح من غير تبصر ، ولا اكتراث ليشعلها ناراً .

ليت هؤلاء يدرسون قبل أن يتكلموا أو يكتبوا . . حتى تحترمهم العقول ، وتتقبل كلامهم ، حين يسوقون الدليل عليه ، ولا يثيروا الحفائظ على الإسلام والمسلمين .

إن مثل كلامهم هنا ، وكلامهم عن الاستيلاء على أموال غير المسلمين ، لينشروا الدعوة ــ كما يقولون ــ إنما يصنع نعوشهم بأيديهم ، وأيدى غيرهم . وهم لايدرون . . فليتهم يفقهون ، حتى لايشوهوا الإسلام بهذه الصورة العدوانية المنفرة . . والمسلمون يعيشون مع المسيحيين واليهود فى مصر منذ جاء الإسلام إخواناً متعاونين فى السراء والضراء . . وربما أمن المسلم مسيحياً على أمواله ، ولربما أمن المسيحى مسلماً على أمواله

وحاجاته ، لايفكر أحد فيما يفكر فيه هؤلاء الذين يقولون انهم يخدمون الدين ، وهم يعكرون صفو الحياة على المواطنين . ويثيرون بعضهم على بعض .. وهم يفعلون بوطنهم ودينهم أشد مما يفعله الأعداء بها .. فليتهم يفقهون .. ويتبصرون .. ولا «يفرقعون» كلاماً فى الهواء لايدرون عواقبه الضارة لهم ولدينهم .. ولوطنهم ومجتمعهم .. هداهم الله ..

خطأ وخطيئة

من نعم الله الكثيرة على مصر أن المسلمين فيها طائفة واحدة هى الطائفة السنية فليس من بين أبنائها شيعى ولا غيره من الطوائف الأخرى وبذلك رسخت الوحدة الفكرية الدينية بين مسلميها والحمد لله على المذهب السنى .. كما رسخ الاعتدال الفكرى بين أبنائها جميعاً فلم يحدث أن وجدنا من أية جماعة أو من أى فرد كما أعلم اعتنق فكرة تكفير من حوله من المسلمين ، ولا قامت جماعة الإخوان المسلمين وازدهرت بقيادة العالم الواعى البصير المرحوم الشيخ حسن البنا تدعو للإسلام السمح ، بحماس وإخلاص ، وتعرضت لما تعرضت له على يد

الحكومات فى عهد الملك ، وعهد الثورة ، لم نجد من أفكارها أنها كفرت حاكماً أو محكوماً ، بل وقف دعاتها فى أشد الأوقات عليهم موقف الاعتدال من هذه الناحية ، ولا يزالون .

ولهذا كان غريباً علينا وعلى مجتمعنا هذا أن ينشأ فيه فكر متطرف يرمى الحكام والمحكومين بالكفر اعتماداً على أفكار للخوارج درست وبادت ، ورفضها المجتمع الإسلامى منذ نشأت حتى قضى عليها نهائياً فى الحياة ، ولم يبق لها وجود إلا فى التاريخ أو بين سطور الكتب ، التى تتحدث عن القرن الأول والذى يليه من تاريخ الإسلام . . وإن كانت قد حدثت جماعات شاذة بعد ذلك على نمطها أو قريباً منها ثم طواها الزمن كما يطوى كل شىء ناشز وشاذ .

كان غريباً جداً على مجتمعنا الإسلامى الهادىء الورع أن يفاجأ بأبناء منه تنطلق أحكامهم بالكفر على الحاكم وعلى المسلمين جميعاً . لا فى مصر وحدها ولكن فى العالم الإسلامى أجمع . . ولو وقفوا عند هذا الحد من الكلام لكان الأمر محتملاً ، وأمكن تهدئتهم أو اجتنابهم إن لم يهدءوا . . ولكن الأمر تعدى ذلك إلى آثاره . . فما دام الحاكم والمحكومون كفاراً أو مشركين فى نظرهم ، فقد أصبح دمهم وعرضهم

ومالهم مهدراً ، ووجبت معاملتهم معاملة الكفار والمشركين لا يسمع لهم قول ، ولايستجاب لنصيحة ، ومن هنا كان خطر هذا الفكر الجديد على مجتمعنا ، فأصحابه يعتقدون أنهم يقومون بواجب دينى ، أو على الأقل بشىء مباح دينياً ، إن هم قتلوا واحداً أو سلبوه ماله أو عرضه لأنه فى رأيهم لا حرمة له .. وربما اعتقدوا أنهم يتقربون إلى الله والجنة بالقتل أو السلب أو الاعتداء على العرض !! وهذا ـ كما قلت ـ هو الخطر الأكبر على المجتمع وعلى هؤلاء أيضاً وعلى الدعوة ، لأن مجتمعهم لن يتقبل بسهولة حكمهم هذا عليه بالكفر ، ولا يقبل تصرفاتهم القائمة على هذا الحكم وستعمل الحكومة يساعدها المجتمع ضد هذا الفكر وأصحابه ، ماداموا قد خرجوا هكذا إلى ساحة العمل إلى هذا الحد ، وتكون النتيجة المؤسفة الأخيرة أن المسلمين فى الوطن الواحد وربما فى البيت الواحد يحاربون بعضهم بعضاً وينكل بعضهم ببعض ، وأعداؤهم والشانئون الشامتون يتفرجون عليهم وتقر عيونهم ويضحكون ملء أشداقهم كما حصل مع الأسف .

والنتيجة الأشد أسفاً وألماً هى النظرة التى ستتكون عن دعاة الفكرة الإسلامية فى مجتمعنا وفى غيره . فلم يألف مجتمعنا أن يعتمد الدعاة الإسلاميون على القوة والبطش والقتل ، ولا يقبل

من الداعية المسلم أن يهاجم بالسلاح إخوانه المسلمين المخالفين له ويقتل هذا أو ذاك ، ومهما يكن له من رأى . فإنه لم يبلغ درجة استباحة دم إخوانه ، وستكون النتيجة الحتمية لهذا التصرف الغريب حنق المجتمع عليهم ، والترحيب بكل عقاب ينزل بهم، بل دعوة الحكومة للحزم معهم ، ثم تتكون عند المجتمع النظرة المريبة للشباب المتدين ، ولكل داعية يدعو للإسلام ويتحمس له ، ولاسيما إذا كان من الشباب . . والخاسر فى النهاية هم هؤلاء ، وهى الدعوة الإسلامية ، وهى البلد التى كتب عليها أن تكون مسرحاً لهذه الحوادث ، وهى العائلات التى قتل منها من قتل ، وحبس من حبس ، وخسر من خسر !!

الشرارة الأولى

وقد انتبه المجتمع بشدة إلى هذا الفكر حين قام جماعة من أفراده بقتل العالم الكبير الدكتور الشيخ محمد الذهبى عليه رحمة الله ، ورحبوا علنا بفكرة القتل . . . كما قاموا بحادث الفنية العسكرية ، وجرى التحقيق معهم وأدينوا وصدرت ضدهم الأحكام المعروفة .

وكان من الضرورى أن يتيقظ المجتمع لخطورة هذا الفكر ،

ويظل متيقظاً له ، عاملاً بكل الوسائل الفكرية والأمنية لتصحيحه وإنقاذ خيرة من شبابنا من أضراره . . ولكن هذا لم يحصل بالدرجة التى كان يستحقها حين اعتمدنا على الأحكام الشديدة التى صدرت على بعض أفراده وتراخينا . . وأبعدتنا مشاغل الحياة الأخرى عن العناية به . وكان هذا هو الخطأ الذى وقعنا فيه ، ونجنى الآن آثاره .

وحين اتجه بعض شبابنا فى الجامعات إلى دينه فى أوائل السبعينات باركنا هذا الاتجاه ، وغذيناه بالمحاضرات واللقاءات التى كنا نشرح لهم فيها مبادىء الإسلام وتعاليمه الصحيحة . . ولكن وجدنا أخيراً بعض هذا الشباب يتحول ــ مع الأسف ــ شيئاً فشيئاً إلى اعتناق الأفكار الخاصة بجماعة التكفير . . ويكفرون المجتمع والحاكم . . ولكن لم نلحظ عليهم لانحن ولا جهات الأمن التى كانت تتابعهم أنهم ينزعون إلى القتل ، وإن شاب تصرفاتهم شىء من العنف ، لكنا قلنا : إنه عنف الشباب وطبيعته . ورجونا له التهذيب على مر الزمن فهم أولادنا ، ونرجو أن ينتفع الوطن بهم . . حتى فوجئنا أخيراً بمظاهر العنف الشديد حتى القتل بهذه الصورة المحزنة والمخزية !! .

وإذا كانت الأحداث الماضية من قتل المرحوم الشيخ الذهبي وحادثة الفنية العسكرية قد هزت المجتمع إبان حدوثهما هزاً قوياً عنيفاً ، فإن الأحداث الأخيرة قد هزته هزاً أعنف وأشد ، بل وهزت العالم كله بالاعتداء على حياة الرئيس الراحل ، ثم الاعتداءات التي تبعته ، وربطت بينها وبين حادث مقتل الرئيس ، وراح ضحيتها عشرات من أبناء الشعب من الجنود والضباط ومن هؤلاء أيضاً في أماكن ومدن متفرقة ، مما جعل الشعب يهتم وينزعج بصورة عنيفة وكثيبة من قاع الريف إلى القمة في المدن والهيئة الحاكمة ، والمعنيين بشئون الإسلام والدعوة إليه . . ويتساءل الجميع عن نشأة هذه الأفكار ، وكيف ومتى نشأت ؟ وعن مدى ارتباطها بالخط الإسلامي المستقيم لاسيما وقد وصل هذا الشباب بأفكاره إلى قاع الريف وأحدث خلافات ومشاجرات بينه وبين الناس .

ومن خلال عنايتي بهذا وجدت بعض الكتب التي تعالج هذه الظاهرة وتتحدث عن نشأتها ، وعن الظروف التي نشأت فيها ، وعما دار حولها من جدال داخل المعتقل في العهد الماضي في الستينات بين أصحاب هذه الفكرة وبين الجمهرة الكبرى من الإخوان المعتقلين وعلى رأسهم المرحوم الأستاذ حسن

المضيبى .. ومن حسن الحظ أيضاً أنى وجدت أصحاب هذه الكتب ، من الأساتذة الإخوان الذين عاصروا وشهدوا نشأة هذا الفكر داخل المعتقل ، يتولون الرد على هذه الأفكار فى كتبهم ، بعد أن تولوا الرد عليها داخل المعتقل فى مناقشاتهم .. ومن أهم هذه الكتب التى توفرت أمامى : كتاب «دعاة لاقضاة» للمرحوم الأستاذ المضيبى ، وكتاب : «الخوارج الأصول التاريخية لمسألة تكفير المسلم» للدكتور مصطفى حلمى ، وكتاب «الفرقان بين الكفر والإيمان» للأستاذ عبد المتعال عبد الواحد ، وكتاب «الغلو فى التكفير» للدكتور يوسف القرضاوى ثم كتاب «الحكم وقضية تكفير المسلم» للأستاذ القانونى المستشار سالم البهنساوى وهو أوسعها وأشملها . وقد تعرض فى كتابه لنشأة هذا الفكر ، وذكر ما دار فى المعتقل من مناقشات حوله وردود على أصحابه ، وأضاف إلى ذلك ما رآه من ردود عليه .. وبذلك عالج هذا الموضوع علاجاً وافياً وهو بحكم وضعه الذى

كان فيه بالمعتقل «شاهد حضور» على ميلاد هذا الفكر وسببه ، ثم شاهداً ومباشراً لما دار من مخاض حول ميلاده ، وهذا جزء من عنوان الكتاب الذى كتبه الأستاذ المستشار القانونى سالم على البهنساوى لمناقشة دعوى شباب متطرف شذ عن أفكار الإخوان

المسلمين المعتدلة داخل المعتقلات فى العهد الماضى ، فكفر المسلمين جميعاً . .

وسأترك المجال هنا للمستشار البهنساوى ويعتبر ممن تولى عرض هذا الفكر والرد عليه ويسجلون آراءهم حول ما أثير ويثار من بعض هؤلاء المتطرفين الذين شذوا عن فكر الإخوان والإسلام ، معتمدين على بعض أقوال لم يفهموها حق الفهم من أقوال المرحومين الأستاذين سيد قطب وأبى الأعلى المودودى ، ومتخذين منها سنداً .

وقد اخترت أن أترك المجال لهؤلاء ليتولوا مناقشة المتطرفين والرد عليهم باعتبارهم أقرب الناس إليهم وأنهم كانوا جماعة واحدة يعانون محنة واحدة فى المعتقلات وحين رفضوا هذا الفكر المتطرف فى تكفيره للمسلمين جميعاً شعباً وحكومة ، وعلماء وجميعات إسلامية وإهدار دمهم ومالهم وهم داخل المعتقل يعانون العذاب من الحكومة فى ذلك العهد . . لايمكن لأحد أن يتهمهم بأنهم يوالون الحكم الذى يعذبهم ، ولا أنهم يقولون ذلك ليفرج عنهم ، فقد رفضوا ما عرضه الحكم عليهم من الإفراج عنهم وإعطائهم كل حقوقهم إذا هم أعلنوا تأييده ، رفضوا تأييده أو مهادنته وآثروا دوام الاعتقال والتعذيب على أن

يصدر منهم أى تأييد . . فلا يتصور أن يكون رأيهم الذى أعلنوه فى وجه هؤلاء المتطرفين برفض أنكارهم تقرباً منهم أو تزلفاً للحكم ، كما يدعى هؤلاء على علماء الأزهر وغيرهم حين يخالفونهم .

وقد قدم الأستاذ البهنساوى لكتابه الذى يقع فى ٣٧٥ صفحة . . بأن الذين قالوا بكفر أصحاب الذنوب من المسلمين ويكفر من لم ينخرط فى الجماعة «جماعتهم» إنما يعيدون مبادىء بعض الخوارج الذين انقرضوا وعفا عليهم الزمان ، كما أن المفاضلة الشعورية والتدرج فى إظهار معتقداتهم هى من وسائل الباطنية الذين اتخذوا من أساليب المجوسية واليهودية عقائد لهم ، وقد أجمعت الأمة على تكفيرهم ، ص٦ .

ثم تساءل فى المقدمة «فما سبب ظهور هذا الفكر من جديد» ؟ وما هو مستقبله ؟ .

ثم قال «رأيت من الواجب أن أعرض هذا الفكر حيث أتيح لى الاطلاع على بحوثهم ووسائلهم ومناهجهم . . ؟ مع بيان الحكم الإسلامى فى الموضوع» ليكون حكم الله واضحاً «حتى إذا ماتصدى أحد لتكفير الناس يكون على بينة قبل أن يصدر حكمه» .

المعارك الرهيبة وميلاد التكفير

وتحت هذا العنوان تحدث عن ميلاد التكفير وأسبابه حيث رأى أن أهم أسبابه كان العذاب الذى صب على الإخوان فى المعتقل .

فقال :

«إن الوسائل الوحشية التى اتبعتها السلطات المصرية آنذاك تجاه أصحاب الفكر الإسلامى كانت من أهم عوامل ظهور هذا الفكر» وشرح ذلك فقال «لقد لمس الشباب التطبيق العملى لهذه السياسة من خلال ما لاقوه فى السجون والمعتقلات بالنسبة للفئات الأخرى» ووضح بعد ذلك ، أن الفئات الأخرى حتى اليهود والشيوعيين كانوا يلاقون معاملة حسنة لايحلم بها الإ وان مما زادهم حنقاً على الدولة وجعل بعض الشباب يتساءلون : هل هذه دولة إسلامية ؟ ووجدوا فى كتابات المرحوم سيد قطب عن الجاهلية والمجتمع المعاصر ، ما جعل فكرة التكفير تختمر فى نفوس هذا البعض حيث أصبحت الدولة والمجتمع جاهلين مرتدين كافرين .

ويقول «انهم فى البداية وقفوا عند هذا المفهوم العام دون أن

يدخلوا فى التفاصيل ومن ثم لم يعتزلوا المجتمع ولم يستحلوا حرماته» . . أى أن بعض الشباب اكتفى بالحكم على المجتمع بأنه كافر . ولم يزيدوا على ذلك .

ولكن الأمر تطور بعد ذلك عندما زاد التنكيل والعذاب بالإخوان «حيث فوجىء المعتقلون بأبى زعبل وطره والمحكوم عليهم فى السجن الحربى برجال السلطة يطلبون من الجميع تأييد رئيس الدولة بالروح والدم تأييداً مطلقاً مقرين بأنه الخليفة العادل» مع تهديدهم بمضاعفة العذاب إن لم يقروا بذلك .

وهنا «قامت معركة رهيبة فى كل من السجن الحربى ومعتقل أبى زعبل ، اقترنت بفكرة المخاض لهذا الفكر . حيث أعلن الجميع دون تردد ــ أنه لا ولاء بينهم وبين هذه الحكومة التى سلبتهم حقوقهم وقامت بدور الجلاد» .

وكان جبروت «حمزة البسيونى» والأحداث التى تفاقمت بعد هذا «فقامت فئة من الشباب وأعلنت للجميع أن رئيس الجمهورية كافر كبن جورين وأشكول» وهذه جاهلية مصرية التقت مع الجاهلية الإسرائيلية ، والإسلام برىء منهما» يعنون ذلك أنهم لا يؤيدون بلدهم فى حرب إسرائيل .

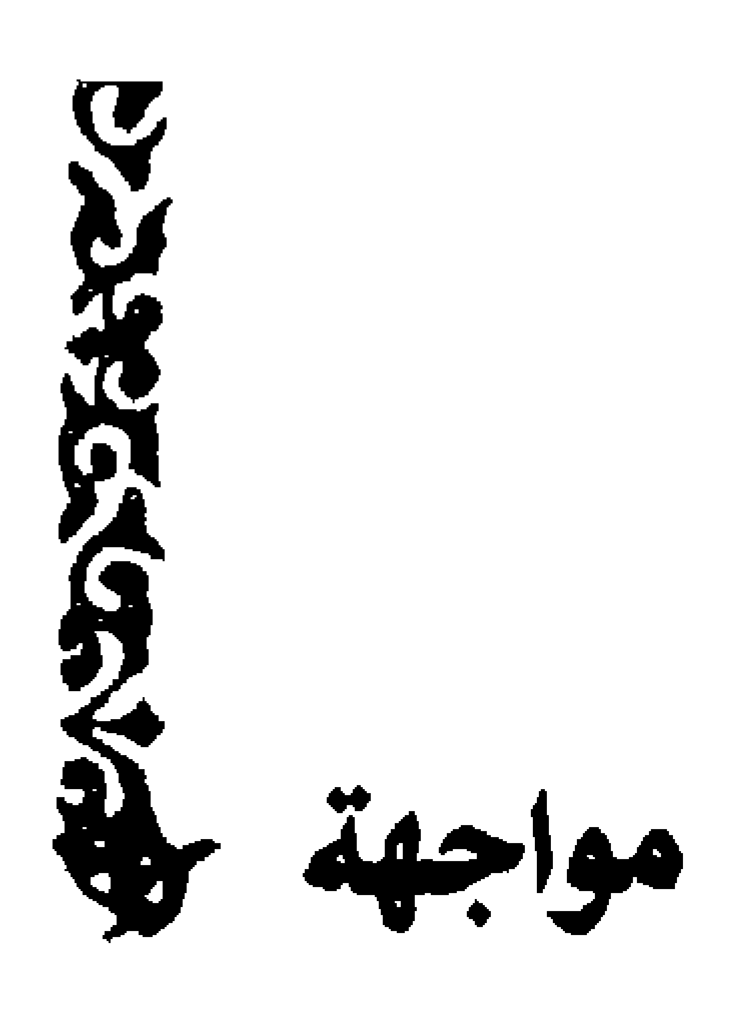
«وهنا تدخلت السلطة وعزلت هؤلاء فى (زنازين) خاصة وفيها تمخضت مناقشاتهم عن ميلاد (التكفير)» .

«وبعد انقضاء مدة العزل ، تم الإفراج عنهم من هذا العزل ، وانتشروا فى الحجرات وأعلنوا فكرتهم ، وكانت مظاهرها :

١ ـ أن صلى هؤلاء الشباب وحدهم ، وأعلنوا أن باقى الإخوان «الذين لم يوافقوهم على فكرتهم» قد كفروا لأنهم أيدوا الحاكم .

٢ ـ وأن أفراد المجتمع قد كفروا لموالاتهم للحاكم الجاهلى ولاتنفعهم صلاة ولا صوم» .

٣ ـ وأن الخروج من الكفر يكون بالانضمام إلى جماعتهم ، ومبايعة إمامهم ، وكان «الشيخ على عبده إسماعيل» الذى رجع بعد ذلك عن أفكاره وهو فى المعتقل . وهذا يعنى أن جماعتهم وحدها هى المسلمة ومن عداها يعتبرون كافرين مرتدين لا يسلمون إلا إذا انضموا لجماعتهم هذه وكفروا من عداهم من المسلمين !!



مواجهة

«ولما ووجه هؤلاء بالآثار المترتبة على حكمهم هذا من ضرورة فسخ عقود الزوجات اللائى لا يدخلن هذه الجماعة» .. «أى زوجات المنضمين لها باعتبارهن كافرات مشركات كما يلزم تحريم الذبائح المذبوحة فى بلاد إسلامية . لأنها ارتدت عن الإسلام ، كما يلزم اعتزال المساجد ، وعدم صحة الصلاة خلف من لم يؤمن بهذا المفهوم» .

وعندما واجه المعتقلون من الإخوان هذا الشباب بهذه النتائج ، انقسموا إلى طائفتين :

١ ــ طائفة تمسكت بالمفاصلة الصريحة ، وأعلنت كفر

إخوانهم الذين لايقولون بكفر من خالفهم ومنهم جماعة الإخوان والآباء والأمهات . . والمفاصلة الصريحة تعنى المجاهرة بتكفير من عداهم واعتزالهم وعدم جواز بقاء الزوجية بين واحد أو واحدة منهم وبين زوجها أو زوجته الكافرة . . وقد ذكر المؤلف بعد ذلك ص ١٤١ حادثة قال إنها مشهورة :

«فى قرية دفنو مركز أطسا بالفيوم حيث قام سعيد محمد عبد الرحمن عبد الجواد سعيد بإقناع والدته بنت الشيخ أحمد محمد عيد بأن زوجها ـ يعنى أباه ـ كافر . وبالتالى أخذها معه إلى مصر ، وعقد قرانها على أخ له فى الفكر ، دون أن يطلقها» !! .

٢ ـ طائفة أخرى تؤمن بتكفير الجميع أيضاً لكنها لاتعلن هذا ، للظروف التى حولها فهم كمن يقولون «بالتقية» يسايرون الناس ظاهراً ، حتى انهم إذا ألجأتهم الظروف للصلاة خلف عالم لا يؤمن بفكرتهم فى التكفير يتابعونه ظاهراً فى حركاته ، لكنهم ينوون المفاصلة الشعورية بينه وبينهم ، ولذا سميت هذه الطائفة «بطائفة المفاصلة الشعورية» ووجدوا لهم مستنداً فى العهد المكى حيث انهم مستضعفون مضطرون لمسايرة من حولهم داخل ذبائحهم ونكاح نسائهم ، حتى إذا تمكنت الجماعة وحكمت أخذت بما حدث فى العهد المدنى . . وهم يسمون

حركتهم أيضاً «الحركة بالمفهوم» وهى جزء من عقيدتهم . فيكفرون من لجأ للقوة فى عهد الاستضعاف كالطائفة الأولى . . وهكذا لا يسلم بعضهم من بعض .

وأقول : قد حدث لى وأمامى ما يؤيد هذا فى شهر رمضان الأسبق حيث دعيت للإفطار مع من ندعوهم كل مغرب فى مسجد السيدة خديجة بمصر الجديد . وبعد الإفطار على تمر فى المسجد ، قمنا للصلاة ، فتقدمنى واحد منهم شاب صغير فأزيح

عن مكانه وصلى خلفى هو والجميع ، وكان له زملاء فصلوا معنا . . لأنهم هابوا الموقف . ولكن لفت نظرى أحد الأصدقاء عند الانصراف بعد الإفطار أن هؤلاء الشباب قد تجمعوا ، ويعيدون صلاة المغرب ، وكان هذا لأنهم يعتقدون أن الصلاة خلف عالم مثلى باطلة !! وأيقنت أن هؤلاء من جماعة التكفير الذين يعتنقون مبدأ «المفاصلة الشعورية» من الطائفة الثانية التى ترى عدم المجاهرة ، بتكفيرهم ومجابهة الناس بآرائهم ، حتى يقوى شأنهم ، ويحكموا ، وهم لهذا تكفرهم الطائفه الأولى ، صاحبة مبدأ المفاصلة الصريحة للمجتمع . . وهكذا تكفر الطائفتان جميع المسلمين ، ثم ترتد كل واحدة منهما ، فتكفر الأخرى ، حتى لو أخذنا برأيهم جميعاً لم يعد هناك مسلم على

وجه الأرض . لا هم ولا غيرهم !! .

وهذه نتيجة طبيعية لكل فكر مضطرب لم يقم على أساس صحيح ! .

وبعد أن سرد المؤلف أفكار هؤلاء بنوعيهم فى تكفير الحاكم والمجتمع ، ممن لا ينضم لجماعتهم ويؤمن بإمامهم تساءل : من أين جاء هذا الفكر الغريب ؟ الذى يشبه من بعض نواحيه فكر المدعو «محمد طه» بالسودان الذى تجرأ وزعم أنه نبى ، كما زعم الميرزا علام أحمد القاديانى منشىء القاديانية فى الهند وباكستان . . هل وراء هذه الأفكار الهدامة للإسلام فكر أجنبى ؟ . . ورجح أن يكون وراء القاديانية والسودانى فكر أجنبى ولكنه قال «بخصوص الفكر المصرى بنوعيه التكفير والهجرة (الصرحاء) والحركة بالمفهوم (أى السرية) أنه نشأ على يد أشخاص ليسوا عملاء ، ولا هم من المتهمين فى دينهم . وكان بسبب الاضطهاد الذى لم تصادفه البشرية من قبل ، ولا نعتقد أنها ستصادفه من بعد والذى أصبح حرباً صريحة للإسلام سنة ١٩٦٥ ومابعدها» .

ومع أن هذا يمكن أن يكون مقبولاً فى حينه كرد فعل وقتى غاضب للتعذيب والاضطهاد ، لكن للإنسان أن يتساءل :

ولماذا استمر هذا الفكر وعنف ، بعد أن أخرج الرئيس الراحل المعتقلين جميعاً من السجن وأنصفهم ، ورد حقوقهم ، بل حاكم كل من عذبهم ، وأعطى بعضهم التعويضات التى حكمت بها المحاكم كما أعطاهم حرية الدعوة للإسلام وتكوين الجماعات الإسلامية فى الجامعات كما رأينا . . ولم يصادرهم برغم بعض التجاوزات التى كانت تصدر منهم ؟ .

لماذا يظل هذا الفكر ويعنف إلى هذا الحد حتى فى بعض أفراد من الجماعات الإسلامية التى كان الجميع يقول عنهم انهم بعيدون عن العنف واستعمال الأسلحة ؟ . . لاسيما بعد أن أمر الرئيس الراحل عليه رحمة الله بتعديل فى دستور سنة ١٩٧١ يقضى بأن تكون الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع فى البلاد وتم هذا التعديل كما أمر الرئيس الراحل منذ سنة ١٩٧٨ رئيس مجلس الشعب ببدء العمل واستخراج مختلف القوانين من الشريعة ويدىء العمل فى ذلك بواسطة اللجان المتعددة منذ ذلك الحين وأمر الرئيس الراحل كذلك فى أعقاب اجتماعه الذى حصل فى رمضان سنة ١٣٩٩ أغسطس ـ ١٩٧٩ الدكتور صوفى رئيس مجلس الشعب بأن يستعجل إصدار القوانين الشرعية ، مايتم منها أولاً بأول دون الانتظار حتى يتم

الجميع ، وكان ذلك أمام نائبه «الرئيس الحالى» وأمام شيخ الأزهر السابق والحالى وأمامى . . وكادت أكثر اللجان تنتهى فعلاً من عملها ومن وضع المذكرات التفسيرية لما تتمه من قوانين . . ونشر ذلك مراراً .

لماذا كل هذا العنف بعد كل هذا . . . بعد هذا الموقف الإسلامى من الدولة . . لماذا ؟ .

فهل الدولة التى تعمل هذا وتسعى لتطبيق الشريعة كاملة تكون كافرة ويكون هذا الموقف منها ؟ .

وهل العلماء الذين عملوا ويعملون لتطبيق الشريعة ويستحثون الخطى لنصل للنتيجة يكونون كفاراً ؟ .

وهل النواب الذين طالبوا ويطالبون ويستحثون أو يعملون فى اللجان التشريعية ويستعجلون عرض هذه التشريعات قريباً أو سريعاً يكونون كفاراً مهدورى الدم ؟ .

وهل الشعب الذى طالب بالتشريع وانتخب نوابه على هذا الأساس كما يعرف الجميع وهو يترقب الانتهاء من وضع هذه التشريعات ، ويقرأ أنها على وشك النهاية يكون شعباً كافراً ؟

وهذه التشريعات الإسلامية ستزيل من القوانين الحالية كل التناقضات مع الشريعة .

ألم يكن فى كل هذا ما يهدىء من نفوس هؤلاء ويحل عقدهم ، ويجعلهم يقدرون عمل هذه اللجان والجهد الذى تبذله لاستخراج أنسب الأقوال الشرعية وصياغتها فى قوانين ووضع مذكرات تفسيرية لها بالمراجع من القرآن والسنة وكتب الفقه الكثيرة المتنوعة .. ؟

هل ذلك كان أولى بهم ، أم هذا العنف القاسى الذى لم تشهد مصر مثله فى تاريخها لا من دعاة للإسلام ولا من غيرهم ؟ .

هل ذلك كان أولى بهم وبالدعوة الكريمة التى أعلنوا العمل لها . أم هذا المصير الذى صاروا إليه والمظهر الذى ظهروا به أمام الشعب من استعمال الأسلحة والقتل .. والمآل الذى آلت إليه الدعوة والدعاة .. والنكسة التى أصابتها وأصابتهم بعد النكسة التى أصابت الدعوة والدعاة من قبل ؟ .

أما كان فى أساتذتهم ومعلميهم من قادة الإخوان وعلمائهم وعلى رأسهم مرشدهم المرحوم الأستاذ الهضيبى قدوة كافية

ومقنعة لهم ، وقد عارضوهم فى رأيهم وذكروا لهم حججهم وأدلتهم ؟ ولكن كان جزاؤهم من إرشادهم للصواب أن وضعوا سداً بينهم بتكفيرهم حتى أصبح الإخوان المسلمون جميعاً ممن لم يوافقهم على رأيهم كفاراً أيضا مهدورى الدم والمال ؟ !

إننى أشهد لله أن الأستاذ عمر التلمسانى كثيراً ما صرخ فيهم معارضاً رأيهم هذا ، طالباً منهم وراجياً طرحه والعدول عنه ، وكان يقول لهم : حتى لو قطعتمونى إربا إربا فأنا لن أوافقكم . . وكانوا للأسف لا يستجيبون ولو استجابوا لكان خيراً لهم وللدعوة وللبلاد وأقوم ، ولكنه قدر الله ، وما شاء فعل ، ونسأله اللطف بنا وبالبلد فى قضائه وقدره .

ونستعرض الآن بعض ما ذكره المؤلف لكتاب « الحكم وقضية تكفير المسلم » الأستاذ المستشار سالم البهنساوى ؛ من ردود على الذين كفروا غيرهم من المسلمين جميعاً . مضيفين إلى ذلك ما أمكن من ردود المرحوم الأستاذ الهضيبى وغيره على هذا الفكر ، مؤثرين ذلك على أن ندلى بحجتنا ، حتى لا نعطى مجالاً لاتهامنا بأننا نتملق الحكم على حساب ديننا .

يذكر الأستاذ البهنساوى ص ٥٢ فى الرد عليهم أن النبى ﷺ قد حكم بالإسلام لمن أعلن النطق بالشهادتين دون البحث عن بواطنه ، وذلك فى أحاديث كثيرة رواها الصحيحان وغيرهما من كتب السنة : منها ما قاله الرسول لوفد عبد القيس أتدرون ما الإيمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» . «ولهذا فالقول بكفر من نطق بالشهادتين لأنه لم ينضم لجماعة هذا الفكر وإمامهم هو تشريع جديد، فى دين الله مهما تكن البواعث الطيبة عليه» .

فالله قبل إسلام من لم يهاجر مع الرسول من مكة وذكر لهم إيمانهم فى قوله ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ فأثبت لهم الإيمان ، وهم لايزالون فى مكة متخلفين عن الرسول ، وأمر بمناصرتهم إلا على قوم بينهم وبين المسلمين عهد الأمان . . ثم استشهد المؤلف لكلام سيد قطب فى «الظلال» عند تفسير الآية بأنه لا يكون بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية ، ولكن تبقى رابطة العقيدة» .

ثم تحدث عن المعاصى والكفر ، حيث يحكم هؤلاء بالكفر على مرتكب المعصية . فقال ص ٦١ :

«لم يحكم الرسول ﷺ بالكفر لعدم العمل بأحكام الشرع ،

فقد قال عبادة بن الصامت :

«أخذ علينا الرسول ﷺ كما أخذ على النساء أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أتى منكم حداً فأقيم عليه فهو كفارة له ، ومن ستر الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له» رواه مسلم . فهذا دال على أن مرتكب المعصية يظل مسلماً متروكاً أمره لله . ويقول الأستاذ الهضيبى فى كتابه : «دعاة لاقضاة» ص ٣٩ فى الرد على هؤلاء احتجاجهم بحديث «لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن . . الخ» أن الرسول ﷺ قد أتى له الزانى والزانية والسارق ، والتى جحدت العارية والغالى والمنتهب وشارب الخمر . . فلم يعتبرهم كفاراً ، ولم يقم عليهم حد الردة .

وقال رسول الله فى حديث آخر ، ان من قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك دخل الجنة وإن زنى وإن سرق وكرر ذلك ثلاث مرات كما رواه البخارى . . وحديث رسول الله لأبى طالب حين موته ، وطلب منه أن ينطق بالشهادة ليدخل الجنة . . وأحاديث وأقوال كثيرة أوردها الأستاذ الهضيبى لبيان مذهب أهل السنة ــ مذهبنا ــ وإبطال قول هؤلاء الذين يكفرون المسلمين بالمعاصى .

ويستشهد الأستاذ البهنساوى على أن النطق بالشهادة يعصم الدم والمال ص ٦٣ بحديث المقداد بن الأسود الذى رواه البخارى ومسلم الذى قال فيه لرسول الله : أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فاقتتلنا فعزل إحدى يدى بالسيف أو قطعها ، ثم لاذ بشجرة ، وقال : إنى أسلمت لله . أأقتله بعد أن قالها ؟ فقال النبى : لاتقتله . فقلت : يارسول الله لقد قطع إحدى يدى ، ثم قال ذلك بعد أن قطعها ؟ فقال لاتقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته .

وهذا منتهى التشديد فى تحريم قتل مسلم نطق بالشهادة ، ويذكر أيضاً حديث أسامة بن زيد رضى الله عنهما من رواية البخارى ومسلم من أنه هاجم قوماً من الكفار فلما تمكنوا من رجل ، قال لا إله إلا الله ، فطعنه مع ذلك وقتله ، وحكى ذلك للرسول فاستعظم ذلك وأنكره عليه وقال له : أقتلته بعد أن قال لا إله إلا لله ؟ وأخذ يكررها معنفاً أسامة حتى تمنى أسامة لو أنه لم يكن مسلماً وفعل هذه الفعلة . ص ٦٤ وفى رواية أخرى أنه قال لأسامة : ماتصنع بلا إله إلا الله ؟ منكراً عليه فعله .

وهكذا تتضافر النصوص من السنة ومن القرآن أيضاً ﴿ ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ﴾ على أن النطق

بالشهادتين يعصم دم الإنسان وماله ، حتى ولو ارتكب الكبائر ، مادام لم يستحلها . . ويتبين من هذا بجلاء بطلان قول من يكفر المسلم لأنه ارتكب معصية ، ويستحل دمه .

ثم تعرض المؤلف للرد على بعض الأدلة التى تمسك بها من يقول بالتكفير «مثل حديث كفر تارك الصلاة» . . وقال ما قاله جمهور الأئمة من أن ذلك ورد مورد التشديد ، كما ورد فى عدم الحج للمستطيع ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ .

وكما ورد فى حديث النساء وقوله ﷺ عنهن : «يكفرن» ولما سئل قال : «يكفرن العشير» كما جاءت الآية من سورة النحل ﴿ فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ وقوله ﷺ «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» فليس المراد الكفر الأصيل بدليل أن الآية تذكر المقتتلين من المسلمين بصفة الإيمان فى قوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ فلم ينزع عنهما صفة الإيمان . . وهكذا يأتى لفظ الكفر صفة لإنسان أو حماقة ولا يراد به الكفر الأصيل . لأن المسلم لايكفر إلا إذا جحد الله ورسوله ، أو أنكر شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة ، أو استحل محرماً منصوصاً على

حرمته كالقتل والربا والزنا . . لأن فى ذلك تكذيباً لله ورسوله ومصادرة على قولهما . . أما من ارتكب معصية ، وهو مقر بأنها معصية أو ترك واجباً وفرضاً وهو مقر بأنه فرض معترف بأنه مذنب ، كترك الصلاة إهمالاً فلا يمكن ولايجوز الحكم بكفره وذلك استدلالاً بحديث رسول الله : «ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء أدخله الجنة وإن شاء عذبه» فلا يجوز الحكم بكفره وإهدار دمه بل نتركه لله كما قال الرسول .

فمن الضرورى للذى يريد المعرفة أو الفتوى أن يكون ملماً بالنصوص كلها ، ويقابل بينها ، ويأخذ الحكم النهائى من هذه المقابلة . . ولا يتمسك بنص ويترك الآخر . . جهلاً أو عناداً . . وقد فعل ذلك العلماء والأئمة من أسلافنا فخرجوا بنتيجة أن ألفاظ الكفر أو الشرك كما فى حديث «الرياء شرك» قد تذكر للزجر وتعظيم الذنب ولايراد بها الكفر الصراح أو الشرك كما فى قوله أيضاً : «من حلف بغير الله فقد أشرك» فهناك إذن كفر دون كفر ، وشرك دون شرك ، أو كفر بالنعمة مما يسمى كفراً فى العمل ، أو كفراً مجازياً وكذلك الشرك مما يسلب صاحبه كمال الإيمان ولكن لايسلبه الإسلام . . ويقول ابن القيم فى هذا «الكفر نوعان : كفر جحود وكفر عمل . . والأول يضاد الإيمان من كل وجه والثانى منه مايضاد الإيمان كالسجود للصنم ومنه

ما لا يضاد الإيمان كالحكم بغير ما أنزل الله وترك الصلاة» ص ٧٧ ويستشهد لذلك بكلام للمودودى الذى يفترى عليه هؤلاء الشباب ، ويدعون أنهم يتبعونه ، فيذكر عن المودودى مقالاً له يقرر أن المسلم مهما غرق فى المعاصى فإنه لايمكن أن يعتقد حلها ، لأن القيم التى يؤمن بها لايزال ينظر إليها بتقديس وإجلال ، ـ وأى مسلم ولو كان جاهلاً بالقرآن ينكر فى نفسه هذا العرى وكل مظاهر التفسخ حتى ولو اشترك فيها ـ ثم يقول المؤلف فى نهاية اقتباسه : «ومع هذا الإيضاح ينسب للمودودى أنه يؤمن بكفر المجتمعات !! مع أنه ينفى الكفر عمن اشترك فى مظاهر التفسخ والعصيان صراحة ، ويقول إن المسلم برغم ذلك ينظر إلى قيمه نظرة إجلال وتقديس .

لفظ الجاهلية

يعتمد الشباب على بعض ماذكره المرحوم سيد قطب من جاهلية مسلمى هذا القرن فيقولون بكفره وإهدار دمه وسواء قرر سيد قطب هذا صراحة أم ضمناً فإن الحقيقة تنطق بأن لفظ الجاهلية لفظ مشترك قد يراد به الكفر ، وقد يرد وصفاً لعمل ويراد تقبيحه والتنفير منه لا أنه كفر . . كما قال الرسول لأبى ذر حين عيّر بلالاً بأمه السوداء «إنك امرؤ فيك جاهلية» أى صفة من صفاتها ، وهى التفاخر بالأنساب لا كفر الجاهلية . مع أن المرحوم سيد قطب قرر صراحة فى قوله تعالى : ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ أن هذا وصف لحال بعض الرماة فى

غزوة أحد ، وقد ضعفوا وأغرتهم المادة ، مع ثبات بعضهم . وليس هذا دمغاً لهم بالكفر بل بالمعصية كما يقول الله ﴿ وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم ﴾(من ظلال القرآن جـ ٤ مجلد ٢ من ص ١٠٦ ــ ١١٠) فلا يمكن وهذا هو قول المرحوم سيد قطب أن يريد بجاهلية مسلمى العصر كفرهم ، بل معصيتهم ومن ذلك أيضاً جاهلية التبرج الأولى ﴿ ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ يريد بها أن التبرج صفة من صفات الجاهلية ، لا كفر الجاهلية وهكذا لابد من مراعاة السياق الذى يرد فيه لفظ «الجاهلية » . . وكذلك لفظ الفسق ولفظ الظلم ، فقد يراد بالفاسق الكافر ، وقد يراد به العاصى المرتكب للذنوب ، كما فى قوله تعالى «يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فَتَبَيَّنوا آن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين»[1] .

وهى فى شأن أحد المسلمين . . كما جاء عن السخرية

---

(١) الحجرات / ٦ .

بالمسلمين والمسلمات وعن الغمز واللمز والتعيير بالألقاب «بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان» .

فلا يعنى به الكفر ولكن يراد به المعصية ونقص الإيمان . .





يعتبرون المساجد معابد جاهلية

كيف يتأتى لهذه الجماعة أن تحكم بأن المساجد معابد جاهلية والمصلون بها كافرون ولذا فهم لايشاركونهم الصلاة فيها لأن مشاركتهم تعنى موافقتهم ؟ ليس ذلك فى مصر وحدها بل فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ؟ أليس مؤدى هذا الحكم أنه لايوجد مسلم على ظهر الأرض إلا هذه الجماعة التى لم تسلم هى أيضاً من تكفير الآخرين لها ؟ !!

ويقول المؤلف إذا كانت الجماعة هنا تقتفى كلام المودودى رئيس الجماعة الإسلامية بباكستان فإن رئيس الجماعة لم يكفر بالجماعات الأخرى ، بل وتشارك جماعته فى الانتخابات

مرشحين وناخبين ، ودعت للاتحاد مع بعض الأحزاب للوقوف في وجه حزب آخر واتحدت معها للنجاح فى الانتخاب .

ويسند المؤلف فكرة اعتزال المساجد إلى كلام للمرحوم سيد قطب عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ الآية : يونس ٨٧ ، فقد حبذا الاعتزال الذى أمر به موسى وهروبه لكل جماعة مضطهدة فى بيئة منتنة متجبرة كبيئة فرعون الذى يصطاد المؤمنين بها ويقضى عليهم فأمرهم الله بالتستر فى البيوت . وقد أخذ الشباب فكرة الاعتزال للمساجد من هذا التوجيه ، وهو خطأ ، لأن المساجد فى مصر للجميع لايضطهد أى مرتاد لها ولا يصطاد اصطياد فرعون لأتباع موسى . . والملايين فى مصر والعالم الإسلامى ترتاد المساجد للعبادة وسماع الدروس ولايتعرض لها أحد ، بل يدعى الناس للعبادة والتفقه فيها . . فكيف يعقد الشباب مقارنة بين حالنا وحال مجتمع فرعون ـ ويجعلون مجتمعنا كمجتمع فرعون ؟ ـ إن حرية العبادة مكفولة حتى لغير المسلمين ، والجميع يصلون ولا يتعرض لهم أحد اللهم إذا أثار فتنة وأساء إلى حرمة المساجد فينبه عليه بعدم العودة لذلك ، وجماعة المصلين هم الذين يتولون هذا صيانة لحرمات

المساجد . . وقد قال المفسرون عند تفسير هذه الآية : إن أتباع موسى اشتكوا إليه من أنه لايمكنهم أن يظهروا صلاتهم فى المجتمع فأمروا بالصلاة فى البيوت . فمن الخطأ الواضح أن يأتى أى إنسان ويطبق هذه الحالة على المجتمعات الإسلامية الآن ومساجدها ، مهما يكن هذا القائل سيد قطب أو غيره . . وهذا شيء واضح لكل الناس على مختلف أفهامهم . .

فلعدم أمن بنى إسرائيل المؤمنين بموسى من الصلاة فى بيعهم وأماكنهم العامة خوفاً من فرعون ، كان من الضرورى أن يؤمروا بالصلاة فى البيوت خوفاً على حياتهم من فرعون وجنوده . . وهذا هو الحكم الشرعى لكل من لا يأمن على حياته أو مصالحه إذا ذهب للمسجد ، فيصلى حيث يمكنه ، فهذه حالة خاصة وقد مرت بالرسول وأصحابه فى بدء الدعوة . . ولا يتصور من إنسان أن يقول إنها موجودة الآن بالنسبة لمساجد الله فى العالم الإسلامى إزاء أى إنسان أو أية طائفة مسلمة اللهم إلا إذا كان من شأنها تلويث المساجد والعبث بها واتخاذها مكاناً ومنطلقا لأغراض خبيثة تتنافى وشرع الله وأمن البلاد ، فإن المساجد تصان من هؤلاء . فالاستدلال بحالة بنى إسرائيل الآن لاعتزال مساجدنا ، وعدم الصلاة فيها خلف الأئمة أو فرادى استشهاد

موغل فى الخطأ ، ولا أظن أن المرحوم سيد قطب أراد هذا فى كتاباته ، حتى يستشهد بها هؤلاء ، ويلوون كلامه عن حقيقته . . وإذا أراده فإنه يكون مخطئاً .

وقد رأى الاستاذ البهنساوى ـ المؤلف ـ أن يستشهد بمقال الأستاذ محمد قطب بمجلة المجتمع الكويتية فى ١٧ شوال ١٣٩٥ هـ ـ ٢١ / ١٠ / ١٩٧٥ م يعلق على اللغط الذى دار حول كلام أخيه المرحوم ، وجاء فى هذا المقال : إننى سمعته أكثر من مره يقول : إن الحكم على الناس يستلزم وجود قرينة قاطعة لاتقبل الشك وهذا أمر ليس فى أيدينا ، ولذلك فنحن لانتعرض للحكم على الناس . . الخ . ويقول : إن أخاه حين تكلم عن المفاصلة الشعورية التى لابد أن تنشأ تلقائيا فى حس المسلم الملتزم تجاه من لايلتزمون بأوامر الاسلام كانت هى المرادة بالمفاصلة ، لا المفاصلة المادية الحسية التى تعنى المقاطعة التامة فنحن نعيش فى هذا المجتمع ، وندعوه إلى حقيقة الإسلام ولانعتزله ، وإلا فكيف ندعوه ؟» ص ٢٧٤ .

ويمكن لنا أن نعبر عن المفاصلة الشعورية بأنها الانكار بالقلب الوارد فى حديث النهى عن المنكر ، فالمسلم الملتزم لايحس أى تجاوب بينه وبين مسلم مستهتر بأوامر الله فيشرب الخمر أو يسرق

أو يزنى أو يغش .. الخ حيث يجد حجابا نفسيا بينه وبين هذا المستهتر .

وهذا شعور طبيعى لايحتاج إلى تكلف ، ولايعنى مقاطعة هذا المستهتر فى كل شىء يقوم به ، لاسيما ما كان خاصاً بأمور الحياة من هندسة وتعليم .. وتطبيب .. الخ . فأنا أنكر عليه استهتاره فى كذا ولكنى أنتفع بعلمه وفنه لأننى أنتفع بعلم الكافر وفنه فكيف أقاطع المسلم العاصى فى كل شىء ؟ «والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها» هذا ومن المعلوم بداهة أن كلام المرحوم سيد قطب أو غيره ليس قضية مسلمة ، فليس هو معصوماً ولا منزهاً فى كلامه وآرائه عن الخطأ .. فأحياناً كان يحكم عليه مزاجه العصبى بالتطرف والخروج عن جادة الاعتدال التى التزم بها الإخوان ومرشدهم نظراً لضيقه الشديد بتصرفات الحكومة معه ومع إخوانه . حتى ولو كان معتدلاً دائماً فليس رأيه مسلماً له دائماً وإلا فليس هو أولى ولا أرفع من الأئمة وقد قال الإمام مالك : «كلٌ يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر» يريد الرسول ﷺ .. ومن أجل هذا استعرض المؤلف كلام سيد قطب الذى اعتمد عليه هؤلاء فى الهجرة والمفاصلة الشعورية وغيرها وانتهى إلى أن كلام سيد قطب لايمكن أن يؤدى إلى هذه الأفكار المتطرفة فسيد قطب لم يكن

يريد بالهجرة هذا الانعزال المادى فى الكهوف والصحارى وترك المدارس والجامعات وإلا فكيف يدعو المجتمع إلى فكره . . ثم يقول المؤلف :

«إن أصحاب فكر التكفير يستندون إلى أقوال سيد قطب فى تدعيم انحرافاتهم الفكرية وأغفلوا النصوص الشرعية» التى تقف فى وجه أفهامهم المتطرفة كقول الرسول ﷺ «الهجرة أن تهجر السوء» ص ٢٨٦ ثم يقرر المؤلف : «ومن أقوال سيد قطب يتضح أنه ليس صاحب فكر التكفير بمعالمه السالفة الذكر ، كما أنه لم يصدر عنه حكم بكفر من تخلف عن الهجرة إلى هذا التجمع الحركى الإسلامى » . .





الحكم بغير ما أنزل الله

وهذا أهم موضوع فى فكر هؤلاء اعتمدوا عليه لترويج تكفيرهم للحكام المسلمين ، الذين يصدرون بعض القوانين وفيها مايبيح المحرم ، وتكفيرهم للقضاة الذين يحكمون بهذه القوانين وللشعب الذى ينفذ هذه الأحكام ، دون أن يثور فى وجهها ووجههم ، ودون أن يحكم بكفرهم لأن من لم يكفر الكافر يكون كافرا فى رأيهم .

ولهذا نخص هذا الموضوع بشىء من البسط والتفصيل الذى يستحقه لأنه حجر الزاوية فى تفكيرهم وتكفيرهم لغيرهم .

ولا ـ معنى الحكم بما أنزل الله :

أقول : هل هو قاصر على الحاكم الذى يصدر القانون والقاضى الذى يصدر حكمه بناء على القانون ؟

أو أنه يشمل كذلك كل فرد يعمل عملا وهو مختار ، يخالف به حكم الله بمعنى أنه يشمل كل من يخالف حكم الله فى قول أو عمل . . مخالفة عملية ، سواء بإصدار قانون ، أو بالحكم به ، أو بمباشرة هذه المخالفة التى يفعلها المرء بنفسه ، ويدافع من شهواته وأغراضه فيكون معنى «ومن لم يحكم بما أنزل الله» من لم يحكم غيره ومن لم يحكم نفسه بما أنزل الله ؟

المفهوم الطبيعى الذى أراه صواباً أن كلمة ﴿ ومن لم يحكم ﴾ ليست مقصورة على الحاكم الذى يصدر الأمر أو القاضى الذى يصدر الحكم ، بل تشمل أيضاً المفتى والعالم وأى إنسان يفتى بغير ما أنزل الله قولاً . كما تشمل كل إنسان يعمل عملاً أو يقول قولاً يخالف ما أنزل الله . . لاسيما وأن الآية نازلة تعقب على جماعة من اليهود خالفوا حكم التوارة ، ولم يخضعوا له ، والتمسوا حكماً غيره عند الرسول يفتى به لهم فهى تنطبق على المخالفين من الناس انطباقا أولياً . .

وتكون نتيجة هذا لو قلنا بكفر «من لم يحكم» كفراً حقيقاً أن الحكام والقضاة والعصاة المخالفين لحكم الله فى أعمالهم وأقوالهم يكونون كفاراً كفراً حقيقياً . وهذا يؤدى إلى كفر جميع المسلمين فى كل العصور إلا من عصم الله . فمن من المسلمين فى أى عصر وأى مكان لم يخالف فى عمله أو قوله حكماً من أحكام الله بمعصية مثل الغيبة والنميمة والكذب والغش الخ . ؟ وقد سبق أن كتبت فى هذا بجريدة الأخبار ، مقالاً تحت عنوان «كلنا فيه سواء حكاماً ومحكومين» وهذا القول بالكفر الحقيقى برغم أنه بعيد عن العقل ، مخالف لمقتضى الشرع ، وللنصوص الشرعية الكثيرة . فيجب العدول عنه إلى قول آخر يمكن أن تقبله العقول السليمة ويتمشى مع نصوص الشرع القويمة الأخرى .

وقد عنى الأستاذ البهنساوى وغيره — ممن تولوا الرد على فكر هؤلاء الشباب — بهذا الموضوع لبيان الحقيقة فيه لأنهم اعتمدوا على هذه النصوص «ومن لم يحكم» وعلى حديث للرسول فقالوا بتكفير الحكام وتكفير من لم يكفرهم ، ولم ينضم لجماعة هؤلاء الشباب فى تكفيرهم ومناهضتهم . . وقال المؤلف ص ١٤٥ :

«لقد تجمع أصحاب هذا الفكر على رأى واحد هو أن حكام المسلمين قد كفروا وأن المحكومين الذين لم يعملوا على تغيير هذا

الحكم بالانضمام للجماعة قد كفروا أيضاً . . وقالوا بكفر من معهم من الإخوان لأنهم اتبعوا توجيهات مرشدهم العام الأستاذ حسن الهضيبي» .

وقد أخذ الأستاذ يرد عليهم ويذكر ما قاله ابن عباس فى الآية : «كفر دون كفر» وما ذكره ابن القيم فى «مدارج السالكين» حيث قال ص ١٤٧ «والصحيح بأن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفر بين الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم أى كفر العقيدة وكفر العمل دون العقيدة فإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعدل عنه عصياناً فهذا كفر أصغر ، وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه فهذا كفر أكبر يريد بالكفر الأصغر المعصية كما جاء فى حديث «سباب المسلم» فسوق وقتاله كفر» ثم ذكر الحديث الذى استندت إليه هذه الجماعة أيضاً فى التكفير وهو عن عدى بن حاتم قل : «أتيت النبى وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال يا بن حاتم ألق هذا الوثن من عنقك ، فألقيته ، ثم قرأ الرسول ﴿ اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . . الآية ﴾ فقلت يارسول الله ماكنا نعبدهم . فقال كانوا يحلون لكم الحرام فتستحلونه ويحرمون عليكم الحلال فتحرمونه فقلت : بلى قال فتلك عبادتكم إياها» رواه الترمذى .

والجماعة تستند فى تكفيرها للحكام وللمسلمين إلى أنهم يسنون القوانين المخالفة فنطيعهم فيها .

لكن الأستاذ يرد عليهم بأن هذا ليس المعنى الحقيقى للحديث . لأن الشرك والكفر بالنسبة لهؤلاء الأتباع كان لأنهم يوافقون الأحبار فى التحليل والتحريم مع اعتقادهم ذلك ويصبح ما قاله الأحبار بذلك دينا . وهذا واضح من قوله «كانوا يحلون لكم الحرام فتستحلونه» أى تجعلونه حلالاً ، اتباعاً لهم . ومؤدى هذا أن المسلم لو خضع للقانون الذى يبيح الخمر وهو لايزال معتقداً حرمة الخمر فلا شىء عليه ، وإن شربها كان عليه إثم الشرب فحسب . وفى هذا يقول ابن تيمية ص ١٤٩ «من اتبع فى العمل فقط فلم يستحل الحرام كان فاسقاً ، أما من اتبع فى الاعتقاد باستحلال الحرام وتحريم الحلال كان كافراً» والعبرة حينئذ بالنية عملاً بحديث الرسول «إنما الأعمال بالنيات» .

وكذلك الأمر بالنسبة للحاكم فإن أمر بقانون فيه معصية ومخالفة لأمر الله مستحلاً لذلك كفر ، وإن أصدره أو حكم به معتقداً مع ذلك أنه حرام ، لم يكفر حقيقة وإن ارتكب معصية ، مثله مثل الشخص الذى يفعل الحرام ، فالكفر نوعان ــ كما يقول ابن القيم ص ١٦٠ ــ كفر أكبر موجب

للخلود فى النار . وكفر أصغر موجب لاستحقاق العذاب دون الخلود ، كقوله ﷺ «اثنتان من أمتى هما من الكفر : الطعن فى النسب والنياحة» وقوله «من أتى امرأة فى دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد ، ومن أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه فيما يقول فقد كفر» . . وقال ابن القيم هذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة «بأنه ليس بكفر ينقل عن الملة . ومنهم من أولها على ترك الحكم جاحداً كعكرمة ثم قال «والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين الأكبر والأصغر بحسب حال الحاكم ، فإن كان جاحداً كان كفره أكبر ، وإن لم يجحده كان عاصياً . . وكفره أصغر . ثم أورد الأستاذ بعد ذلك ردوداً قيمة على بطلان تكفيرهم لغيرهم باستنادهم إلى ما قاله ابن عبد الوهاب فى تكفير من استعان بغير الله فى الكلام عن الوسيلة وهى مسألة خلافية بين العلماء ، ولايمكن أن يراد بكفر من استعان بغير الله وقال يا رسول الله إنه كفر حقيقى ولكن مداه أنه معصية . .

وفى كتاب المرحوم الأستاذ الهضيبى ـ دعاة لا قضاة ـ للرد عليهم ، يخصص الفصل الثالث ص ٤٧ لبيان معانى الجحود ، والكفر ، والشرك ، والردة ، والنفاق ، ويأتى بالأدلة من المراجع المعتمدة على فساد أقوال هؤلاء فى تكفير الحاكم والشعب ونقل

من شرح الطحاوية فصلاً كبيراً يؤيد رأيه وفيه هذه الفقرة :
«وهنا أمر يجب أن نتفطن له وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفراً ينقل عن الملة وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة ، ويكون كفراً مجازياً أو كفراً أصغر ، وذلك بحسب حال الحاكم ونيته فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله كان كفراً أكبر ، وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق العقوبة فهذا عاص ويسمى كافراً كفراً مجازياً أو كفرا أصغر» .

ونعلق على هذا كله ونقول إن الحاكم والشعب كله يعتقدون فى حكم الله وأنه واجب التطبيق ، وإن حالت ظروف دون تعميم تطبيقه حتى الآن ، ولكن الخطوات تتخذ لذلك ، فقد حصل تعديل فى الدستور ينص على أن الشريعة هى المصدر الرئيسى للتشريع ، وأمر الحاكم ـ عليه رحمة الله ـ المسئولين بالمسارعة فى استخراج القوانين من الشريعة لتطبيقها وبدأنا العمل فى ذلك منذ سنين ورسمياً فى رحاب مجلس الشعب وينفق عليه من ميزانية الدولة ..

فلا وجه ـ إذن ـ للادعاء بأن الحاكم يجحد شريعة الله لا هو ولا الشعب ، وحينئذ لا وجه مطلقاً لتكفيره ولاتكفير الشعب

بإجماع كل الأئمة من أهل السنة والجماعة .. فمن استمر فى تكفير الحاكم والشعب الآن من أجل عدم تطبيق الشريعة فهو مخالف لأهل السنة والجماعة ، متبع لأقوال الخوارج الذين يكفرون المسلم لمجرد أنه ارتكب معصية من الكبائر .. ونحن والعالم الإسلامى كله من المسلمين السنيين تابعون لأهل السنة والجماعة ، لا نعرف ولا ندين بمذهب الخوارج الذى انقرض وإندثر لمخالفته وسطية الإسلام وخروجه على طبيعته السمحة . وقد حاربهم على رضى الله عنه والدولة الأموية لتمردهم الدائم على الحكم ، وخروجهم من الجماعة بأفكارهم الشاذة حتى انكسرت شوكتهم ، واختفوا تماماً من على مسرح الحياة الإسلامية منذ نحو اثنى عشر قرناً . فإذا جاء جماعة الآن يريدون بعث فكرهم ، ويتصرفون على أساسه فمن الطبيعى أن يجدوا من الحاكم ومن الشعب ما وجده أسلافهم من الإمام على ومن الدولة الأموية ومن المسلمين فى تلك العصور ، ولكن سيكون ذلك على حساب الإسلام وعلى حساب أمن الأمة وسلامتها وترابطها .

وفى الفصل الرابع من كتاب «الحكم وتكفير المسلم» للمستشار سالم على البهنساوى يتحدث عن «المجتمع بين المفاصلة والاتصال» عند هذه الجماعة ، جماعة التكفير والهجرة

فيقول : إنهم تحمسوا فى الدين حتى أداهم تحمسهم إلى تكفير ومقاطعة مجتمعهم والانعزال عنه متمثلاً ذلك فى الأمور الآتية :

١ ـ عدم الترشيح للانتخابات والمشاركة فيها برأى .

٢ ـ مقاطعة المساجد لأن الصلاة خلف أئمتها تتضمن الشهادة لهم بالإيمان وهم كافرون .

٣ ـ الهجرة إلى الصحراء لأن الهجرة طريق النبى لإقامة دولته .

٤ ـ التوقف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن المجتمعات كافرة وليس بعد الكفر ذنب !! .

٥ ـ مقاطعة المدارس والجامعات وإخراج أولادنا منها .

٦ ـ ترك الوظائف الحكومية وفى الشركات عامة . .

وهذا كله مبنى على اعتقادهم أن المجتمعات الإسلامية مجتمعات كافرة مرتدة .

وأنا لا أتصور كيف يصل شباب عاقل مفكر إلى مثل هذا التفكير . فإذا قاطع المدارس والجامعات فى البلاد الإسلامية مثلاً لأنها مؤسسات الكفر ، فأين يتعلم ويخدم نفسه وأمته ومجتمعه الذى يتصور أنه سيقيمه ؟ هل يتعلم فى بلاد غير إسلامية ؟ كيف وهى بلاد الكفر العريق فى رأيه ؟ !!

هل يحبذ هذا الشباب الأمية عملاً بتعاليم رجل كبير فيهم : أن الرسول بعث فى أمة أمية فلابد أن تصير الأمة الإسلامية الآن أمة أمية اقتداء بأمة الرسول ؟ !!

أين العقل ياشباب ؟ أليس مثل هذا الكلام من أشد ماينفر الناس منكم ومن دعوتكم ؟ هل مثلكم بهذه الأفكار يطمع فى إنهاض أمة ؟ وإذا كان بعض الشباب المتسبين لكم يضربون عن تعلم العلوم مكتفين بعلوم الدين فهل كان هذا هو سلوك المسلمين الأول ؟ وكيف نجد المهندس المؤمن والطبيب المؤمن . . الخ ؟ لماذا لاتحسنون التفكير وتقبلون على التعليم والعيش مع المجتمع ومحاولة التغيير فيه شيئاً فشيئاً ، كما فعل الإخوان المسلمون بقيادة مرشدهم الشيخ حسن البنا عليه رحمة الله ، وقد ربى جيلاً مقبلاً على دينه وكان له أثره الدينى والعلمى ، فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ؟ أليس الإبقاء على «الجرة» لتعطينا ولو نقطة بنقطة من الماء خيراً لنا من كسرها ؟

سيد قطب وأبو الأعلى المودودى

ويذكر المؤلف ص ٢٤٠ أن أفكار هؤلاء الشباب الذين يكفرون الحاكم والمجتمعات الإسلامية فى العالم ويحكمون بوجوب مقاطعتها استمدها الشباب من أفكار أو أقوال المرحومين

الأستاذ سيد قطب والأستاذ المودودى حيث جاء وصفهم للمجتمعات الإسلامية بأنها مجتمعات جاهلية مثلها مثل المجتمعات الشيوعية والوثنية واليهودية والمسيحية . . . ويقول :

«إن موطن الداء فى هذه القضية هو الشبهات التى أثارها كل من الشهيد سيد قطب وأستاذنا المودودى أو غيرهما ممن يصفون المجتمعات بالجاهلية . . فقد علمنا أن هذا الوصف قد يراد به جاهلية الكفر والاعتقاد كما فى قول الله ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون﴾ ؟ وقد يطلق على الجماعات المؤمنة وهنا يراد به جاهلية المعصية والعمل كما فى قوله تعالى ﴿ ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ وكما فى قول الرسول لصاحبه أبى ذر « إنك امرؤ فيك جاهلية » أى بعض عاداتها ـ حين عير بلالاً بأمه السوداء ـ والرسول لايكفر أبا ذر بهذا . ولكنه يفهمه أنه أتى بمعصية ولذلك حرص أبو ذر على أن يسترضى بلالاً حتى رضى . .

ولذلك اجتهد المؤلف فى بيان خطأ هؤلاء الشبان فى فهم كلام سيد قطب ، فإنه لا يرمى الكلام على عواهنه ، ولا يمكنه أن يصف مجتمعا مسلما بجاهلية الكفر ، لمجرد أن فيه بعض القوانين التى تخالف حكم الله . . بل إنه يشترط لذلك من مجموع كلامه أن يرضى المجتمع ويقر بقلبه على استحلال هذه

القوانين المخالفة ، أما إذا أنكرها ولو بقلبه فلا يعد محللاً ما حرم الله ولا راضياً عنه . . وبذلك لا يمكن وصفه بالكفر ولا بالجاهلية . .

وقد سبق بيان حكم الحاكم الذى يصدر القوانين المخالفة عند تعرضنا لحديث عدى بن حاتم النصرانى . . وقلنا إن الحاكم إذا أصدر قانوناً مخالفاً متخذاً لنفسه صفة التحليل والتحريم معتقداً أن ما يصدره هو الحلال وأن ما حرمه الله ليس بحرام فعلاً ؛ فإنه يكون قد تعالى على ربه وصادر حكمه وحكم عليه بالبطلان مما يدفعه للكفر حقيقة . . أما إذا أصدر قانوناً مخالفاً وهو يعلم مخالفته لأمر الله الواجب الاتباع وأنه بذلك عاص لله . . وهو يصدرها إلى حين يتأتى له إلغاؤها وتقرير حكم الله بدلاً منها فإنه لا يعد كافراً لأنه لا يزال مقراً بما قرره الله ولو لم يعمل به فيكون كمن شرب الخمر وهو معتقد حرمتها ومن قتل وهو معتقد حرمة القتل الخ . .

فإطلاق الحكم بكفر الحاكم المخالف خطأ ، كما أن إطلاق الحكم بكفر المحكومين الذين يسكتون عن هذه القوانين المخالفة ولا يعارضونها علنا وبالقوة خطأ . فإن الذين يخضعون للقانون ويتعامل به غير راضين عنه ولا محللين له ، ولا رافضين

وجاحدين لحكم الله .. إن الناس تتعامل بالربا ويعرفون أنه حرام والقاضى يحكم بالربا بمقتضى القانون الذى أمامه ، ويعرف أنه حرام ، ولا يقر أبداً أنه حلال .. فإطلاق القول بكفر جمهور المسلمين لأنهم سكتوا عن حكم مخالف للدين أصدره الحاكم إطلاق خطأ ، إذ لابد من التفصيل السابق بالنسبة للحاكم ، وبالنسبة للمحكومين ، فلا يكفرون إلا إذا اعتقدوا بطلان حكم الله وترجيح حكم العبد على حكمه فى الصحة لأن هذا تنقيص لله جل وعلا .. فإذا ظل الواحد على اعتقاد سمو حكم الله مع وجود القانون المخالف فلا يكون الكفر الأكبر ولكنه المعصية التى يمكن تسميتها كفراً أصغر أو جاهلية صغرى ــ جاهلية وكفر العمل ــ وهى لا تخرج عن الملة كما سبق بيان ذلك .

وأنا وكل فرد فى هذه الأمة ينكر هذه القوانين المخالفة لشرع الله وينادى بتغييرها ، بل إن الحاكم أيضاً ومن يشاركونه فى مسئولية الحكم ينكرون هذه القوانين المخالفة وينادون ويعملون على تغييرها .. وأكبر دليل على ذلك ما جاء أخيرا من تعديل فى دستور سنة ١٩٧١ من أن الشريعة هى المصدر الرئيسى ، إذ بمقتضى هذه المادة وحدها يمكن إبطال كل حكم يصدر مخالفاً

للشريعة . وبهذا يكون الحاكم والمسئولون معه والأمة كلها قد خطت خطوة موفقة لتحكيم الشريعة فى حياتنا بل الأمر لم يقف عند هذا ، فقد أصدر رئيس الجمهورية أوامره وتعليماته لتقنين الشريعة وإصدارها ، والعمل جار فى ذلك بواسطة اللجان المختصة برعاية رئيس مجلس الشعب ، وفى رحاب المجلس من العلماء والقانونيين من أعضاء المجلس وغيرهم . والأمة ونوابها وعلماؤها يستعجلون إصدار هذه القوانين . . فكيف يصح بعد هذا تكفير الحاكم وتكفير الأمة ووصفها بالجاهلية . . ويرتبون على ذلك إهدار الدم والمال . . الخ وانعزالهم عن المجتمع ومقاطعته بهذه الصورة التى سبق نقلها عن المؤلف . والتى أخذ يرد عليها واحداً واحداً ؟ ومع ذلك ظلوا فى طغيانهم يعمهون ، وزاد عددهم ممن تأثروا ببريق كلامهم ، وشعروا بقوتهم بعض الشيء فازدادوا شططا وغلوا وفسادا فى الأرض ، مما كان له آثاره البالغة السوء على سير الدعوة وعلى الصحوة الإسلامية

أفكار غريبة وادعاء أغرب

ومع هذا الذى يقوله المؤلف ، فإننى أجد فى كلام سيد قطب البذرة القوية لهذه الأفكار والشباب ليسوا أصحاب قدرة على الغربلة ومقابلة هذا بهذا . . ولكنهم يعتمدون على مجرد نص

أمامهم . . وهم يجدون فى بعض كلام سيد قطب فى «معالم على الطريق» وفى «ظلال القرآن» مايمكن أن يضع فى نفوسهم البذرة لهذه الأفكار ، وإن أخطأوا فى تطبيقها ولكنى أقول للشباب : إن سيد قطب واحد من أتباع المرحوم الشيخ حسن البنا وقد تتلمذ عليه وعلى علماء فى الإخوان حين أراد الانضمام إليهم أخيراً ، كما كان من أتباع الهضيبى . . فإذا جاء هو وخرج بآراء تبتعد عن آراء إمامه ومرشده . . فإن الحكم الفصل حينئذ هو قول المرشد وتعاليمه التى أفصح عنها فى كثير من محاضراته ورسائله . . وحتى لو قال هو أو المرشد مايقوم الدليل القوى على خلافه فنحن مع الدليل القوى أينما كان . . فنحن مع الحق لا مع الأشخاص . .

وقد وجدنا مرشد الإخوان الأستاذ المرحوم الهضيبى ينكر على هؤلاء تفكيرهم وتفسيرهم لكلام سيد قطب ويقف الإخوان خلفه فيصدر المتطرفون حكمهم بتكفير الهضيبى ومن معه . ويحتكرون الإسلام فى جماعتهم ويكفرون كل من لا ينضم لجماعتهم من أنحاء العالم !! أفكار غريبة وادعاء أغرب .

وقد بلغ من غرابة أقوال هؤلاء وتفكيرهم مايذكره المؤلف ص ٢٩١ تحت عنوان «أمية النبى فى مفهوم التكفير» فيقول :

«لقد استحدث مبتدع هذه الأفكار سنداً شرعياً لمفهوم التكفير فى اعتزال المدارس والوظائف فادعى أن قول الله ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً . . . الآية ﴾ أن هذه الآية تفيد أن المسلم يجب أن يهجر المدارس والتعليم ليتحقق وصف الأمية لأنه وصف الله لهذه الأمة !! ولأن وصف الأمية ليس مقصوراً على معاصرى النبى بل يمتد لغيرهم بمقتضى قوله ﴿ وآخرين منهم ﴾ أى من الأميين فنحن الآخرون !!! ويدعى أمير هذه الجماعة أن لديه علماً بتأويل جميع معانى القرآن وحروفه . . الخ !!

فهل هناك أغرب وأعجب من هذا التفكير؟ ! وقد أخذ المؤلف يرد على هذا التفكير وإن كان فى غير حاجة إلى رد لأن بطلانه أمر بديهى . . فهو يؤدى إلى حتمية الجهل لأمة الإسلام . . وتخلفها عن الأمم ، وتسلط الأقوياء عليها . .

والأمر الأغرب أيضاً : هو مايذكره المؤلف عن أفكارهم بأنهم لا يبالون بما يقترفه المجتمع الذى كفروه من سيئات ولا يدعون للقضاء عليها ، بل إنهم يحبذونها نفسياً أو يتركونها تستشرى ، لأن استشراءها يؤدى إلى هدم هذا المجتمع الكافر !! فيقيمون مجتمعهم على أنقاضه ، بل هم يجعلون من الواجب الشرعى

تخريب هذا المجتمع بأيديهم ، فيستحلون إتلاف ما أمكن من الأموال العامة ، وإيقاع المظالم بمن خرج عن جماعتهم ، ويعدون ذلك من الإيمان ـ ص ٣٠١ فهل هذا إسلام ؟ ! وهل بهذا يأمنهم أحد على عمل ؟ ! .

هناك تلاق مع النظرة الشيوعية

والأغرب أنهم يتلاقون فى نظرتهم هذه مع الشيوعيين أو مع النظرة الشيوعية ، التى تعادى الاصلاحات المتدرجة أو الجزئية فى مجتمع يحتاج إلى إصلاح .. لأن هذه الإصلاحات المتدرجة والجزئية تؤدى فى رأيهم إلى رفع شىء من معاناة المجتمع ومن سخطه ، وبالتالى تؤخر فساده وانهياره وقيام النظام الشيوعى !! وهكذا يتلاقيان على خط واحد !! ولكن الأدهى والأمر أن أبناءنا المسلمين يستشهدون ـ كما ذكر المؤلف ـ على فكرهم التخريبى هذا بالقرآن فى قوله تعالى ﴿ **ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين** ﴾ وقد نزلت هذه الآية من سورة الحشر التى تحكى حرب الرسول ، لبنى النضير من اليهود .. ولجوء الصحابة إلى تقطيع نخيل اليهود ، ليضعفوا قوة مقاومتهم وتعلقهم بأرضهم وثمراتها ، فاعترض اليهود على هذا ، فنزلت الآية تجيزه حينذاك فحسب

فهى إذن فى حرب العدو ، واستثناء من قاعدة الإسلام العامة التى لاتجيز هذا كما روى الإمام مالك فى الموطأ من وصايا أبى بكر لجنوده «ولا تقطع شجراً مثمراً ولا تخرب عامراً . . الخ» كما ذكره المؤلف للرد عليهم .

ومن الطرائف التى ذكرها المؤلف تبعا لهذا أن هذا الشباب يستحل النهب والغش والخديعة لتقوية صفوفهم وتحطيم مخالفيهم ، ويذكر ما رآه الإخوان فى المعتقل منهم ، حينما كانوا يقومون أحياناً بتوزيع الخبز والطعام على المعتقلين ، فكانوا يخصون جماعتهم بالكثير خفية ، بل قام بعضهم بالتجسس على الإخوان لحساب المباحث العامة ، مبتغين بذلك تحطيم مخالفيهم . فهم مع تكفيرهم للحكومة وانسحابهم من وظائفها ومدارسها ، يتعاونون معها ويكذبون على الإخوان المخالفين ، ويستحلون ذلك بهدف تحطيم جزء من المخالفين !! .

ص ٣٠٥ وقد تحدث المؤلف عما كان فيه الإخوان المعتدلون من محنة حين كانوا بين هؤلاء المكفرين لهم يكيدون إليهم بمختلف الوسائل ، وبين سلطة الحكومة واضطهادها وتعذيبها لهم ، ثم ذكر بعد ذلك مناهج حسن البنا وبين انحراف هؤلاء الشباب عنها وإن كانوا يدعون اتباعها ويؤولون فيها بما لم يخطر على بال الشيخ حسن ولا بال أحد من الإخوان .

ظاهرة الغلو فى الدين

ولهذا رأينا الأخ العالم الداعية الدكتور الشيخ يوسف القرضاوى تزعجه أفكار هؤلاء وتغاليهم فيها فيتصدى للرد عليهم فى كتيب وجيز ولكنه جد مفيد عنوانه «ظاهرة الغلو فى الدين» أصدرته الجماعة الإسلامية بجامعة القاهرة سنة ١٩٧٧ قال فى مقدمته («إن هذا الغلو الذى انتهى بهؤلاء الشباب المخلصين الغيورين على دينهم إلى تكفير من خالفهم من المسلمين واستباحة دمهم وأموالهم هو نفسه الذى انتهى بالخوارج قديماً إلى مثل ذلك وأكبر منه ، حتى أنهم استباحوا دم أمير المؤمنين على رضى الله عنه وهو من هو قرابة من الرسول ﷺ وسابقة فى الإسلام ، وجهاداً فى سبيله» .

«ولم يكن الخوارج ينقصهم العمل أو التعبد . . ولكن لم ينفعهم العمل وطول التعبد وحسن النية ، لأنهم ساروا فى غير الاتجاه المستقيم . . ولقد صح الحديث فى ذم الخوارج وفى التحذير منهم من عشرة أوجه كما قال الإمام أحمد ، وجاء عدد منها فى الصحيحين وفى بعضها «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم . .» ومع ذلك وصفهم «بأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من

الرمية» وبين علامتهم المميزة ، وهى أنهم يدعون أهل الأوثان ويقتلون أهل الإسلام ، كما أشار إلى ضحالتهم وسطحيتهم وعدم تعمقهم فى فهم القرآن حين قال ﷺ فيهم : «يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم أو تراقيهم») ص ٨ من المقدمة .

ثم دخل بعد ذلك فى الموضوع وبين خطورة التكفير وآثاره ووجوب الرجوع للقرآن والسنة وأن الإسلام يتحقق بالنطق بالشهادتين وأن من مات عليهما استوجب الجنة ولو بعد أن يعذب على معاصيه ، ثم تحدث عن الكبائر وأنها لا تهدم الإيمان ولكن تنقصه وذكر أدلة ذلك كله من القرآن والسنة ، رداً على هؤلاء وتصحيحاً لأفكارهم . وذكر أن الكفر ينقسم إلى كفر أكبر وكفر أصغر مما سبق أن ذكرناه .

ثم ختم بيانه هذا بقوله : بعد هذا البيان يتبين لكل ذى عينين مدى الخطأ الجسيم والخطر العظيم الذى سقط فيه «إخواننا» الذين أسرفوا فى «التكفير» للأفراد والمجتمعات بالجملة ، معرضين عن كل مايخالف وجهتهم من نصوص الشرع وأدلته ، متذرعين بالتعسف فى التأويل ، والاستدلال بما ليس بدليل . . زاعمين لأنفسهم أنهم بلغوا درجة «الإمامة»

والاجتهاد المطلق !! وآن لهم أن يخالفوا الأمة وما أجمعت عليه سلفاً وخلفاً ؟؟ ، وليس لهذا مصدر إلا الغرور المهلك ، والغلو الضار والجهل بالله تعالى وبالنفس . ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه وفى الحديث الشريف «إياكم والغلو فى الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو» وفى حديث آخر «هلك المتنطعون» ا هـ .

وليس هذا مجرد غلو . بل هو جهل ضار بهم وبأمتهم اقترن بسوء النية فى الأمة والعلماء والحكام ، واقترن مع الأسف بهذا العنف الذى ما كان يصدر عن إنسان يدعو إلى الله ، ويتلمس أن يلتف الناس حوله عن حب واقتناع ليصل إلى غايته فى تمكين شرع الله ، متى كانت هذه غايته فعلاً . .

ولقائل أن يقول بعد كل هذا التحليل والسرد لتاريخ نشأة فكرة التكفير لدى هؤلاء الشباب فى المعتقل :

إذا كان هذا قد حصل فى ظل الظروف السيئة المقيتة التى عاش فيها هؤلاء تحت ضغط وسوط الحكومة ، فكيف ظلت معهم بعد أن أفرج عنهم الرئيس الراحل عند توليه الحكم ، وأكرمهم وأعاد كلا منهم إلى مكانه وأعطاه حقوقه التى ضاعت بسبب اعتقاله .. ألم يكن ذلك كافياً لإراحة نفوسهم والتراجع عما أعلنوه من تكفير الدولة وعما تصرفوا به ؟

وأقول .. إنهم لما أعلنوا تكفير الدولة لسخطهم عليها ، كما نقول للقاسى العنيف فى ضرب ابنه مثلاً أنت كافر ؟ «أعوذ بالله» نعبر بذلك عن عدم وجود شفقة ورحمة بقلبه . فهم قد أطلقوا على الحكومة أنها كافرة لشدة قسوتها عليهم .. ثم علق ذلك بنفوسهم واشتد كأنه صورة انتقام منها .. فهم لم يستطيعوا مقابلتها ومقاومتها بالعمل ، فأطلقوا لسانهم بالشتائم والسب ، شأن كل ضعيف بعد أن يتخلص من يدى القوى ، ويخلو بعيداً عنه .. فقاوموا ظلم الحكومة باتهامها بالكفر . وكان هذا سلاحهم الذى يملكون .. والذى أعلنوه رغم معارضة الجموع التى يعيشون معها من الإخوان المسلمين وفيهم الكبار من موجهيهم ومثقفيهم .. فكان لابد لهم أن يتصيدوا سنداً لهم فى اتهامهم بالكفر للحكومة وغيرها ..

كان السبب الأول شبه تلقائى وهو «قسوتها وعنفها» ولكنهم خطوا الخطوة الثانية ، فَقَعَّدوا هذا الاتهام والتمسوا له الأدلة والأسباب حين ازداد التعذيب لهم ..

فالحكومة تحكم بقوانين فيها بعض الخارج على الشريعة من موادها كقوانين الربا ، والزنا والجرائم الأخرى التى يمكن فيها تطبيق الحدود وهناك بعض المظاهر لاتطبق بشأنها أحكام

الشريعة كشرب الخمر والكباريهات . . الخ ومادامت الحكومة لاتطبق شريعة الله فى مثل هذا ، فهى حكومة كافرة ، بدليل قوله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ فظاهر الآية واضح حتى للرجل العامى . وكلمة ﴿ ومن لم يحكم ﴾ أخذوا منها أنها موجهة للحاكم فحسب مع أنها موجهة لكل المخالفين لحكم الله . وهكذا وجدوا لهم سنداً قوياً فى الأخذ بظاهر الآية دون حاجة للتعمق فى معناها . ولماذا يتعمقون ؟ وهم لو تعمقوا لأفلت الدليل من أيديهم . فليبقوا على الظاهر وليتشبثوا به وليحاجوا غيرهم به . وليدعوا غيرهم للانضمام إلى فكرهم على أساسه بعد ماتحول الأمر إلى عصبية .

ومع أن دليلهم هذا قد وجد فى حينه من قادة الإخوان من يفنده ، ويبين لهم الصواب من أقوال السلف والأئمة ، فإنهم لم يريدوا الاقتناع ، أو لم يرد من تزعم فكرهم أن يتنازل عن فكره وإمارته وزعامته لهم ، فتشبث بفكره وزعامته لمن انضم إليه وخرج من المعتقل متزعماً لهذا الفكر ، يطرحه للشباب ، ودليله من ظاهر الآية يسعفه ، وظواهر الخروج على الشرع موجودة كذلك أمام كل عين ، فهو لايحتاج إلى تعمق فى الدليل ، ولا فى التقاط الظواهر الخارجة ليضم شباباً ورجالاً إليه ، خلوا من المعرفة الدينية ، وهكذا وجد صيده .



بذرة السخط دائما ...

وكما كانت البذرة الأولى فى المعتقل هى السخط على تصرفات الدولة معهم ، كان السخط أيضاً لدى الشباب على حاله ومعيشته ، وعلى ظروف الحياة حوله مما حمل بعض الشباب على تقبل هذه الفكرة بالإضافة إلى مايوجد فى أعماقهم من روح التدين . وابحث عن السخط دائماً تجده قنبلة زمنية .

ومظاهر الحياة وظروفها الممتلئة بالكثير من المتناقضات تمر علينا جميعاً ، ونشترك فى مقاساتها ، لكننا نختلف من حيث تعميق النظرة إليها ومن حيث التأثر بها ، ونسبة هذا التأثر . .

فقد تمر الحادثة أمامى فأنظر إليها بسهولة ولكنها تصيب غيرى بغم وكمد .. وقد أتقبل الخطأ وأتركه يمر ، بينما هو يحفر فى نفس غيرى حفرة عميقة .

فالناس يختلفون بعضهم مع بعض فى التأثر بما حولهم ، سواء من حيث الحزن أو الضحك .. بعضهم يضحك للنكتة من أعماقه ، والبعض الآخر لايحسها أو يراها سخيفة .. بعضهم تأثر لحال ولد فقير ، والبعض الآخر يقول : دا ولد ملعون .. عرضت عليه عملاً مربحاً فرفضه وآثر التسول والفقر هكذا والجرى في الشوارع .. وهكذا تختلف درجة تأثر الناس بمظاهر الحياة أمامهم .. باختلاف داخلهم ونفسياتهم وظروفهم وطبيعتهم .

ومن أجل ذلك تجد لكل دعوة «زباين» ونماذج من الناس تتقبلها ، أو تقبل عليها ، وتركض فيها .. حتى الدعوات الساقطة تجد لها أنصاراً «وزباين» .. «ولكل ساقطة فى الحى لاقطة» «وكلّ فوله ولها كيّال» كمايقول المثل الشعبى .

فلم يكن عجبا أن تجد هذه الدعوة متقبلين لها ثم متحمسين لاسيا وهى تتشح بالدين ، وتلبس لباس الغيرة عليه ، ولاسيا وهى تستشهد بأدلة ظاهرة من القرآن الكريم ومن واقع

الحياة .. ولاسيما أيضاً والشباب ينظر إلى حاله فى حاضره ومستقبله ، فيجد الضياع ، يعيش فيه وينتظره .. يجد غالب ما حوله من قيم ومن حياة مادية شيئاً ضائعاً أو مهزوزاً .. وقد يكون هو يعيش فى بيته ووسط أهله ضائعاً لايستطيع تحقيق رغباته المادية ، أو تطلعاته فى الحياة . وربما كان يعيش فى مشاكل بيئية أخرى متعددة ويعانى مشاكل نفسية .

ومن خلال هذه الحالة أو هذا الضياع الذى يحسه ، يرتمى فى أحضان الدين ، ليجد فيه الراحة ، فيتحمس له ويبالغ فيه .

وقد رأيت شبابا يتحولون من النقيض إلى النقيض ، من انحراف ولا مبالاة تامة ، إلى تشدد وتزمت وغلو فى الدين .. عرفت شباباً لا وزن لهم فى مجتمهم ، يبحثون عن رياسة وزعامة وسط الشباب بتحمسهم وتزمتهم .. ورأيت شباباً كذلك ، فيه نزوع إلى الدين ، تتوقد نزعته ، ويقبل على هذه الأفكار ، بينما أمثال له لايروقهم هذا التزمت والغلو . ويؤثرون الاعتدال .

إن بعض الشباب الذى يتحول للدين يتجه إلى أن يعوض ما فات ، بالتفانى فى الدين .. ويصاب غالبا بهوس دينى يفسد حياته وحياة من حوله ، ويجعله ينظر إلى من لايجاريه نظرة سوء وانتقاص .. ويرميه بالجمود وبالكفر وبما يشاء من اتهامات ..

تعبئة مقصودة ومبالغة فى المقابل

والنغمة التى يضرب عليها الدعاة والمتحدثون حتى من غير الدعاة هى أن صلاحنا هو فى اتباع ديننا ، وأنه لايصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : كتاب الله وسنة رسوله ، وإن سعادتنا واطمئناننا والرغد فى حياتنا إنما هو فى تطبيق شريعة الله وتضخمت هذه الدعوة وحفرت لها طريقا فى الأدمغة والقلوب . . وهذا شىء حسن وجميل يدعو للاغتباط .

لكن كان من أثره أن الناس ـ ولاسيما الشباب المتحمس ـ أخذوا يقيسون أمور الحياة وتصرفات الدولة والشعب أيضاً بمقياس الدين . . وحين يرون شيئاً مائلاً عن الدين يثور غضبهم ويسخطون . . ثم يعلقون كل شىء على شماعة الدولة

حتى مايفعله الناس مما لايد للدولة فيه . فالمهم أن يشوهوا سمعة الحكومة ويوجدوا المبررات لتكفيرها . . وحين قلنا وقال الدعاة : إن الإسلام يتكفل باصلاح الدنيا وتنظيمها ، أخذ الجميع يقيسون التصرف فيها بمقياس الدين . . والشعب من طبيعته ذلك . كل تصرف شائن حتى فى الطريق ، فى المصنع ،

فى أدق شئون الحياة يقولون : «هل هذا يرضى الله ؟» ويخضعونه لحكم الله ودينه . . حين يرون حفلاً فيه خمر يتساءلون : «هل هذا يرضى الله ؟ وهل هذا إسلام ؟» وتضيق صدورهم بهذا . . ويقولون : أين الحكومة ؟ .

فإذا نظر الشباب لحاله ، وضاقت الدنيا فى عينيه ووجد نفسه ضائعاً أمام ظروف الحياة الصعبة . . فهو إذا تخرج كم يكون مرتبه ؟ وكيف يجد له مسكناً ؟ وكيف يتزوج ؟ وكيف يرد الجميل لوالديه اللذين ربياه ، وتحملا ماتحملا فى تعليمه ؟ وكيف يعيش وسط هذه الأسعار المسعورة ؟ وهو أينما يتوجه يجد ما لا يرضى نفسه ونزعته الطيبة . . إذا أراد الاستقامة لايجد مايرضى نزعته ، ولا من يشجعه عليها ، بل يجد العكس ، ويجد نفسه حَمَلاً وديعاً فى وسط سباع ، إذا أراد أن يرضى ضميره اتهموه بالحنبلة والشذوذ !! ، وانصبت على رأسه اللعنات وفى طريقه العقبات . . يجد الوصولية تأخذ طريقها فى هذه الحياة بسهولة ، والطرق الملتوية هى التى توصل للغاية ، بينما الطريق المستقيم طريق مسدود !! .

ويجد أخيراً ما ينادى به الدين فى جانب . وما تجرى عليه الحياة فى جانب وأمام هذه الأزمات والضربات التى تنهال على

رأس الشباب مما يسود الحياة من تصرفات ، يجد صوتاً يناديه : إن فى الدين الخلاص من كل هذا . . فيفر بعض الشباب من هذا الواقع المر ويرتمى فى أحضان الدين الحانية ، يرجو ما عند الله ، ويعمل كل مايستطيع ويبالغ فى كل مايشم فيه أنه دين لإرضاء الله . ومن ذلك ضرورة تطبيق شريعة الله ، والأخذ فى الحياة بمنهج الله .

ثم يجد من بعض الشباب من يعدد له تناقضات هذه الحياة أمامه ، ويعزو ذلك كله إلى الحكومة ، ويذكر له من تصرفاتها مايصوره له بأنه خطأ وجناية على الدين وعلى البلد . . وأنه لا خلاص للشعب إلا باتباع الدين ، والتخلص من هذه الحكومات الكافرة التى لاتلتزم بالدين ، وإننا فى حاجة إلى أناس متدينين يحكموننا ويلتزمون فى تصرفاتهم الخاصة والعامة بتعاليم الدين . . وهكذا يملأون الأدمغة بالمظاهر السيئة ، ويصورون الحياة بالصورة القاتمة فى أعين الشباب ، ثم يسلطون عليه طاقة النور المنبعثة من الدين ، فيقبل بعض الشباب على دعوتهم على أنها دعوة دينية ، تدعو إلى الإصلاح ، ويقع فى أيديهم وهو فى غاية الإخلاص ، فيأخذون فى بث أفكارهم وتعاليمهم ، ومن أهمها الخضوع للأمير فى كل مايتصل بأمور الدين أو الدنيا ،

حتى ولو كان فى ذلك العصيان والخروج على طاعة الوالدين المفروضة .

ولأجل أن يتمكنوا من نفسيه الشباب تماما ، يلقنونه دائماً أن الحكومة كافرة ، لأنها لا تحكم بما أنزل الله ، والشعب كافر حتى والده وأسرته ، والعلماء الموظفون فى الدولة كفار كذلك . ليقطعوا الاتصالات بينه وبين أى إنسان آخر ، ويهدموا الجسور إلا الذى يؤدى إليهم ، فلا تبقى فى نفسه ثقة إلا فى جماعته وأميرها .

ومن ثم لايستمع لنصيحة تصدر من الوالد أو من المعلم أو من العالم أو من أى إنسان إلا من إخوانه فى الجماعة باعتبارهم الجماعة المؤمنة وكل من عداهم كفار . . ويستغرق الشاب فى السير معهم فلا يستطيع الرجوع لقواعده ، ولا الخروج من الجماعة ، وإلا كان مرتداً جزاؤه القتل على أيدى الجماعة . .

وهكذا تتضافر مشاكل الحياة على الشاب فتملؤه بالسخط أو التمرد على مجتمعه ، وهو فى دور التمرد والتحفز والتطلع للمثل العليا ، يناوشه اليأس من هذا المجتمع وفقدان الأمل منه . . ويجد نفسه فى مفترق الطرق إما أن يستسلم لتيار الحياة ، وإما أن يرتمى فى أحضان الدين يطلب رضا الله ويرتمى فيه بقوة وقد

وجد فيه الأمل لأن الدين لا يرضى عن هذا الوضع ولا يقر هذه الحياة ، بل يدعو إلى العدل والتكافل والإنصاف إلى غير ذلك مما تتوق إليه نفوس الشباب .

هذا هو الواقع السيىء الذى يعيشه الشباب

والذين يتساءلون : أين العلماء والدعاة أمام هذا التطرف واتساعه ؟

نقول لهم حتى إذا كان لدى العلماء والدعاة بعض التقصير كشأن كل طائفة تعمل فى المجتمع ، فإن ظروف الحياة القاسية على الشباب ، ووجود المتناقضات الكثيرة فى المجتمع ، هذا الواقع السيىء الذى يعيش فيه الشباب هو أقوى مفعولاً فى نفوسهم من كلمات الدعاة . . لاسيما وهؤلاء المتطرفون كما قلت يثيرون الشكوك فى الدعاة وكلامهم ، فإذا احتج شاب أمامهم بكلام فلان أو فلان من الدعاة ، سارعوا بهدمه واتهامه بأنه عميل للحكومة وكافر لأنه موظف !! حتى إذا ذكر لهم قولاً لإمام من أئمتنا ادعوا بأن كلام أميرهم هو الصواب ، وتطاولوا على الأئمة ، وقالوا نحن لا نأخذ ديننا عنهم ، ولكن من القرآن

والسنة رأساً !! وهم غيرمؤهلين لفهم القرآن والسنة . . وأين هؤلاء من الأئمة الأعلام أبي حنيفة أو الشافعي أو مالك أو ابن حنبل أو غيرهم من عظماء الفكر الإسلامي ؟ لكنه الادعاء . . الذي يجد من يتقبله ويتغنى به من المفتونين الأغرار ، حتى وجدناهم يرفضون الاستماع لأفاضل العلماء وفي مقدمتهم الشيخ الشعراوي والشيخ الغزالي ، ويديرون لهم ظهورهم !!

ومع أن الشريعة مطبقة ولا يوجد مايناقضها إلا في بضع مواد من القانون ، والعمل جار على تصحيح هذه المواد وإصدار القوانين الشرعية ، فإنهم لايعبأون بهذا ، لأنهم لو قبلوه سقطت حجتهم في التغرير بالناس ، ولاسيما الشباب . . وهم أو أميرهم أو أمراؤهم متمسكون بالإمارة والزعامة . . وأية إمارة وزعامة ؟ .

إنها فاقت في نفوذها كل شيء ، وجرفت آراء الأئمة وطاعة الوالدين وكل ما عدها .

فمن ذا الذي يجد نفسه في هذا المركز وتحت إشارته جنود يلبون ، ويرمون بأنفسهم في المخاطر ثم يتنازل عنها مختاراً وبسهولة ؟ ويتراجع عن خطئه وتضليله للناس ؟ !!

مطلوب زرع الأمل في النفوس

إن الشباب فى أشد الحاجة إلى من يزرع فى نفوسهم الأمل العملى ، أعنى الأمل الذى يرون البدء فى تحقيقه ، الشباب فى حاجة إلى أن يروا القادة قدوة فى الجد والتزام الواجب والعمل له .. الشباب فى حاجة إلى أن يرى نفسه يعيش كما يعيش الناس الذين يسمع عنهم ، مستقرين فى حياتهم ، لأنهم يجدون مايسدون به حاجتهم ، ويحققون به ولو الحد الأدنى من المعيشة اللائقة .

إن الحالة الاقتصادية تضغط ضغطاً قوياً على أفكار الناس وتصرفاتهم ، وليس الأب الذى يجد فى يده مايحقق به حاجات

بيته وأولاده ، كالأب الذى لايجد ، ويعيش مضغوطاً بين مايحصل عليه من مال ، وبين حاجاته وحاجات بيته . .

وليس الشباب الذى يجد الحياة أمامه ميسرة ، كالشباب الذى يجد الطريق مسدوداً أمامه .

هذه الحالات الاقتصادية والنفسية تؤثر على الشباب حتى يصبح مزرعة للأفكار الخطرة المتطرفة ـ دينية أو سياسية ـ وإذا كانت الحقيقة تنطق بأن الحكومة ورثت أخطاء وتراكمات من الفساد والإهمال ، وهى تعمل للحد منها وإصلاح ماتقدر عليه ، فإن الحاجة لاترحم . . والصبر قد ينفد . . وذوى الأغراض يجدون صيدهم وطريقهم الذى يوصلهم لأغراضهم ، وكثير من التصرفات المسئولة تضل طريقها إلى الصواب . . !

ونحن نعرف أن الشيوعية مثلاً لا تجد لها مكاناً مهيئاً ولا وسطاً تترعرع فيه إلا الوسط الذى يلفه السخط ويعيش فيه . ولذلك يعملون على إثارة السخط فى نفوس الجماهير .

وهكذا كل فكر متطرف . . ينبت وينمو فى جو السخط والقلق الذى يسود أى مجتمع سواء كان شيوعياً أو دينياً هداما .

والجائع ، والذى يعيش فى ضيق وأزمات فى حياته ، هيهات أن يستمع لصوت العقل أو للرأى المعتدل . . فإذا أردنا أن نقضى على الفكر المتطرف ــ شيوعيا أو دينيا ــ فلا بد أن نعمل بجد واستقامة على تصحيح أوضاع الحياة لابد أن نعمل بحسم للقضاء على كثير من المتناقضات . . لابد أن يثق الشباب فى الذين يعدونه ، ويعرف أنهم سينفذون وعودهم . . فإذا قالوا : سنقضى على أزمة المواصلات أو التليفون فى كذا . . نفذوا وعدهم . وإذا قالوا سنقدم المسكن المناسب فى مدة كذا ، وكل سنة نقدم كذا ، نفذوا ذلك . ووجد الشباب أن العمل يسير فعلاً لتحقيق الوعد وتحقيق الأمل . . هنا يمكن للناس وللشباب أن يطمئنوا ويصبروا ، ويتعقلوا . . أما إطلاق الوعود بكثرة ، ولا عمل يتناسب مع هذه الوعود ، فأمر يدعو لعدم الثقة ولليأس ، وللسخط من عامة الشعب . .

ولذلك رحبت وأعجبت كثيرا حين أعلن الرئيس حسنى مبارك خطته التى يتشدد فيها على التخطيط والعمل ثم الإعلان عنه والالتزام به ، بدلاً من هذه الوعود التى أسرفنا فيها ، كما أسرفنا فى خلقها ونقضها ، ومع ذلك ، لايزال هناك تسيب وعدم التزام ، وعدم حسم فى التنفيذ ، مما أساء اكبر اساءة للنواحى الايجابية التى تمت . .

فلا ننسى ــ إذن ــ أيها السادة ــ حين نفكر فى علاج هذه الظاهرة ــ مختلف العوامل التى ساعدت وتساعد على ظهورها . . وهى ستبقى بل ربما تشتد ، إذا نحن لم نعمل سريعاً على تغيير الأسلوب الذى نعيش به . والقضاء على التناقضات التى تلوث حياتنا . .

ولن يؤثر الأسلوب الدينى المعتدل كثيراً فى نفوس تتفاعل بالسخط وباليأس فى حياتها فلا تتكلوا كثيرا على أسلوب الوعظ الدينى ولا ترموا بالمسئولية كلها على الدعاة ، وتتركوا الأساليب الجدية العملية فى رفع المعاناة وتخفيف درجة اليأس أو السخط فى النفوس . . فقد روى عن الإمام الشافعى رضى الله عنه قوله المشهور: «إننى لا أستطيع أن أفكر إذا عرفت أنه لا يوجد فى بيتى دقيق للغد» .



حوار حول تطبيق الشريعة

قال لى : لماذا الاصرار على تطبيق الشريعة ؛ ألا تكفى القوانين الحالية وتقوم مقامها ؟

قلت له : لأن القوانين الشرعية هى أقرب ماتكون إلى ضمير الأهالى ، ومن الضرورى أن يحرص القائمون على التشريع فى أى بلد على أن يكون الشعب مقتنعاً أو متقبلاً نفسياً مايسن له من قوانين ، وليس هناك تشريع أقرب إلى نفوس المسلمين ، وأقرب إلى قلوبهم من قانون مستمد من الكتاب والسنة إما نصاً أو استنباطاً منها واجتهاداً . لأنهم يكونون أقرب إلى الاقتناع به ، وأسرع إلى الاستجابة له .

وهذا أمر يدركه الجميع ، وقد قرر الفيلسوف «بنتام» هذا حين قال «متى صارت الأمة من حزب القانون ، قل أمل المجرمين فى الهرب من العقاب» لأن الأمة كلها ستراقب تنفيذ القانون الشرعى اقتناعاً به ، وتقرباً إلى الله .

ويقول أيضاً : «إن ميل الأمة أو نفورها ، ربما كان من أعظم الأسباب التي تجب مراعاتها ؛ أى عند سن القوانين» .

وليس هناك قانون تميل إليه الأمة ، كالقوانين المستمدة من دينها ، لأنها تعتبر طاعتها تقرباً إلى ربها . . وطاعة له . . فتكون أكثر مراعاة لها ومحافظة على تنفيذها . . لأنها من حزب القانون كما عبر الفيلسوف «بنتام» .

والدولة تسن القوانين لينفذها الشعب لا ليهجرها ويعاديها . فاستمداد القوانين من شريعة الشعب ، هو من مصلحة الدولة التى تشرف على تنفيذ القوانين . . لأن الشعب سيحس حينئذ رقابة الله عليه فى تنفيذ شريعته ، ومحاسبته سبحانه لكل فرد على مدى خضوعه لها فيكون حريصاً عليها ولو غابت الحكومة عنه . . وهذا عكس القانون الذى لايرتبط بدين الشعب ، فإن الأشخاص يحاولون التخلص منه فى غيبة الحكومة التى تشرف عليه . .

قال لى : أليس فى القوانين الحالية مايتفق مع الشريعة ؟

قلت له : بلى .. أكثر مواد القانون الحالى لا يتصادم مع نظرة الشريعة ، لأن الذين قاموا بوضعها ، كانو يراعون مصلحة الأمة ، وقوانين الشريعة قائمة على رعاية المصلحة مع مراعاة القواعد الشرعية فالقوانين المنصوص عليها فى الكتاب والسنة روعى فيها المصلحة أيضاً كقوانين الميراث . والزواج والطلاق والرضاع والقصاص والحدود : حد الزنى ، والسرقة ، والحرابة والإفساد فى الأرض . . والله سبحانه وتعالى هو الذى راعى المصلحة وقدرها حسب علمه ، فلا معقب لحكمه ؛ ولذلك حين حدد مقادير المواريث والأنصبة ، قال فى نهاية الآية ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعاً ﴾[1] .

وماعدا الأمور المنصوص عليها ، يجتهد المجتهدون فى استخراج قوانين لها تقوم أيضاً على رعاية المصلحة العامة للأمة ، وعدم تعارضها مع نص من النصوص . . وهى أكثر من الأمور المنصوص على حكمها بكثير ، فآيات الأحكام نحو

---

(١) النساء : ١١

مائتى آية وإن كان أوصلها بعضهم إلى خمسمائة ، من نحو ستة آلاف آية . . وقال الفقهاء : إن ماعدا المنصوص عليه متروك أمره للحاكم وخبرائه ، يسنون له من القوانين مايحقق المصلحة على ضوء الشريعة ونصوصها وقواعدها ، عن طريق الاجتهاد . .

وتلك رحمة من الله بنا ، حيث نص على الأمور التى لاتتغير بتغير الزمان والمكان ، ولم يتركها لحكم البشر ، أما الأمور التى يمكن أن يتغير النظر إليها حسب ظروف الزمان والمكان ، فقد تركها للاجتهاد ، يسن لها المجتهدون مايرون ، علاجاً لها ، على ضوء الشريعة والمصلحة . .

ولذلك يمكن أن تتغير من زمان لزمان ، ومن بيئة لبيئة ، وقد حصل مثل ذلك فى عهد الصحابة أنفسهم ، ويمكن الرجوع إلى تاريخ الفقه للوقوف على ذلك[1]

ومن هنا أمكن أن نقول وبدون خطأ : إن الكثير من القوانين التى يسنها رجال القانون والاجتماع الآن ، يمكن أن تتلاقى مع

---

(١) وارجع إلى كتابى (الاجتهاد) فقد عالجت فيه هذا الموضوع .

القوانين الشرعية التى يسنها المجتهدون الشرعيون ، لأن كلا منهما قد راعى تحقيق المصحة على قدر معرفته واجتهاده . . فلا يكون بينهما تفاوت ، ولا اختلاف كبير . .

والشرعيون حين يجتهدون فى أمر غير منصوص على حكمه ، يرجعون إلى أهل الخبرة فيه ، من مهندسين وأطباء ، وزراعيين ، وصناعيين وغير ذلك ، ليعرفوا منهم وجه المصلحة فى الهندسة ، والطب . . الخ .

وعلى ضوء ما يعرفونه من هؤلاء الخبراء يضعون القانون ، وكذلك ، يفعل المقننون الآن . . فإذا طلب منى كشرعى ، وضع قانون للزراعة أو المرور ، فإنى سأرجع حتما إلى أهل الخبرة فى الزراعة وفى المرور ، وهكذا[1] . . وأضع القوانين التى تحقق المصلحة فى الزراعة والمرور . . الخ فإذا رأى خبراء الزراعة مثلاً أن رى البرسيم بعد شهر مايو من كل سنة ، يساعد على كثرة دودة القطن ، ومن مصلحة الزراعة المنع ، كان من المتحتم علىَّ كشرعى ، أن أقول بالمنع . . وهكذا لأن تشريعى يقوم على

---

(١) بنى الفقهاء آراءهم فى مدة الحيض والنفاس وبعض الأمور على رجوعهم إلى استفتاء كثير من النساء وأهل الاختصاص فى الموضوع.

تحقيق المصلحة . . وكذلك يكون على المقنن القول بالمنع ، لأن كلامنا يهتم بالمصلحة ، ويبنى عليها أحكامه .

وهكذا يمكن أن يتلاقى الشرعيون مع المقنين الآخرين فى أكثر القوانين التى تقوم على الاجتهاد والمصلحة . وقد حدث أن حول مجلس الشعب على مجمع البحوث بالأزهر القانون البحرى ، للنظر فيه على ضوء الشريعة . . ولما لم يكن هناك نصوص تسعفنا فى نظر القانون ، نظرناه على ضوء ألا تكون فيه مخالفة لنص شرعى أو قاعدة شرعية . . واعتمدنا بعد ذلك على رأى الخبراء الذين وضعوه وراجعنا فى جلسة واحدة نحو ٤٠٠ مادة ، ووافقنا عليها لأننا لم نجد فيها مايصادم الشريعة ، فتصبح قوانين شرعية . . وهكذا لو راجعنا القوانين الخاصة بالزراعة أو الصناعة ، أو الطيران ، أو المرور ، أو التعليم ، أو الأمور المدنية ، وقد وضعها الخبراء المتخصصون كل فى ناحيته ، لتحقيق المصلحة ، فلن يكون بيننا وبين الذين وضعوها كبير خلاف ؛ اللهم إلا إذا رأى واحد منا أن المصلحة تكون أوفر ، لو عدلنا القانون بكذا ، مثلاً . . مجرد نظرة فى المصلحة واختلاف وجهات النظر إليها ، واختلاف صياغة لفظية . .

ومن هنا يمكن القول بأن أغلب القوانين الحالية لايتصادم مع الشريعة . .

وإنما التصادم الصارخ هو فى قوانين السرقة ، والزنا ، والربا ، وشرب الخمر . . ونواح أخرى تتعلق بالآداب العامة . . وهذه هى التى يجب النظر فيها على ضوء الشريعة ، وتعديل قوانينها حسب الممكن ، ولو بالتدريج . .

فمتى ثبتت هذه الجرائم كان من الضرورى تطبيق رأى الله وحكمه ، ولامعقب لحكمه . . وإذا كانت هناك حالة تستدعى التدرج للمصلحة . . أمكن التدرج مثل الوضع الربوى الموجود .

والذين يعملون لتطبيق الشريعة أمامهم طريقان :

الأول : تأليف لجان لاستخراج هذه القوانين ، وصياغتها ، مع بيان المراجع لها بمذكرة إيضاحية ؛ ليمكن للقاضى والمحامى الرجوع إلى هذه المصادر إذا أراد من كتب الفقه والحديث .

وهذا هو الذى حصل حين وجه الرئيس الراحل أنور السادات الدكتور صوفى أبو طالب للبدء فى إعداد القوانين الشرعية فى ديسمبر سنة ١٩٧٨ .

وبدأنا ـ الدكتور صوفى وأنا ـ وكنت وقتها شيخاً للأزهر بالنيابة لوفاة الدكتور عبد الحليم محمود ـ عليه رحمة الله ـ بدأنا فى تأليف اللجان ، واحتضن مجلس الشعب الموضوع ، وأنفق عليه من ميزانيته ، واشتركت فى الإشراف عليه مع شيخ الأزهر الراحل بعد ذلك والدكتور صوفى وآخرون . .

حتى أتمت اللجان عملها ووضعت القوانين مع مذكراتها الإيضاحية ، وطبعها مجلس الشعب . . ولم تبق إلا خطوة واحدة رسمية ، أن يقدمها بعض أعضاء المجلس أو الحكومة إلى رئيس مجلس الشعب مع طلب نظرها رسمياً . . لتأخذ طريقها للعرض على المجلس .

ولكن لم يحصل ذلك . . وانفضت الدورة ، وجاء مجلس شعب جديد ، ورئيسه المرحوم الدكتور رفعت المحجوب ، وتحتاج القوانين الجاهزة إلى من يقدمها للمجلس رسمياً بطلب نظرها . . فلم يتقدم أحد ، وكان هذا سر تصريح المرحوم الدكتور رفعت بأنه لاتوجد قوانين شرعية أمام المجلس أى

رسميا ، مع أنها كانت موجودة فى الأدراج ،، لكنها تحتاج إلى من يقدمونها رسمياً للمجلس لينظرها .

الثانى : الطريق الثانى هو النظر فى القوانين الحالية المعمول بها ، واستبعاد ما لا يتفق مع الشريعة منها ، ووضع البديل ، وكلاهما موصل للغاية ، وهى أن تكون القوانين متفقة مع الشريعة ، ولاتخرج عنها ، إلا أن الطريقة الأولى تمتاز بمذكراتها الإيضاحية التى يمكن على ضوئها الرجوع إلى كتب الفقه للاستزادة من المعلومات حول المادة لمن يريد ، بدلاً من الرجوع للشروح الفرنسية . . وتمتاز الثانية بأن أكثر المواد لايحصل تعديل فى ألفاظها فتظل كما عهدها القضاة والمحامون ، وفى هذا سهولة لهم . على عكس الصياغة الجديدة التى فى الطريقة الأولى . . والتى ستحتاج إلى مراجعة فى فهمها . . لكن كلتا الطريقتين مؤدية للغاية ، وهى أن تكون القوانين موافقة للشريعة غير خارجة عنها . . وفى الدورة الجديدة لمجلس الشعب ، اتجهت الأنظار إلى ترك الطريقة الأولى بعدما جهزت تماماً إلى الطريقة الثانية ، وهى تحتاج إلى تأليف لجان شرعية وقانونية لمراجعة القوانين القائمة على ضوء الشريعة ، والإبقاء على المواد التى لاتخالف الشريعة ، وصياغة بديل لما يخالفها . .

وهى طريقة سهلة لا تأخذ المعاناة والجهود التى أخذتها الأولى . . وكان المنظور أن تؤلف اللجان وتعمل وتنتهى من عملها ، ولكن ذلك لم يحدث حتى الآن . .

قالى لى محدثى بعد هذا : أنا مقتنع بما تقول ، لكن يظهر أنه جدت بعض العقبات فى طريق إنجاز هذا المشروع .

قلت له : هذا أمر وارد بالضرورة لأن الأمور كانت تسير سيرا طبيعيا ففى اجتماع للسيد الرئيس الراحل مع الجمعيات الإسلامية فى أغسطس ١٩٧٩ فى الإسماعيلية ، كنا نودع الرئيس إلى استراحته : نائب الرئيس (الرئيس حسنى مبارك) ، وشيخ الأزهر المرحوم الدكتور محمد بيصار ، والدكتور صوفى أبو طالب ، والمفتى (شيخ الأزهر الحالى) وأنا . فقال الرئيس : يادكتور صوفى القانون الذى تنتهى منه قدمه لمجلس الشعب فوراً لإصداره ، لكن أخِّر قانون الحدود للآخر . . فقلت له : إننى أرى تقديم قانون الحدود ، لا لمجرد التعصب لرأى الدين ، ولكن لما فيه من مصلحة إقرار الأمن أيضاً . . فقال : هو فى رقبتى ، وأشار إليها ، لكن دعونى لأختار الوقت المناسب ، وأنت أديت الذى عليك . وأنا لم تغب عنى الظروف المحيطة بالموضوع . . وشعرت أن هناك اعتبارات أمامه يحاول التغلب عليها .

فقد يكون قانون الحدود فعلاً محتاجاً إلى شىء من التريث لاعتبارات قد تكون منا أيضاً ، فهناك كثير من كبار الشخصيات

المسلمة وغيرهم هنا يعارضون بشدة هذا القانون ، وقد صرح بعضهم برأيهم فى المصور ، وآخر ساعة والجمهورية ، وقالوا : «كيف نطبق آية مر على نزولها أربعة عشر قرناً فى العصر الحاضر» ورددت على أحدهم فى الجمهورية ، والآخر استمرت المناقشة بينى وبينه على مدى ستة أعداد من آخر ساعة (على ما أذكر فى منتصف سنة ١٩٨٤) . وهناك غيرهم من كبار المتعلمين .

فهناك إذن تيار مضاد من بعض المسلمين أيضاً ، وعلى الأخص من كبار المحامين والقانونيين لتغيير القوانين الحالية بقانون مستمد من الشريعة ، وعلى الأخص قانون الحدود . . وربما كان أحد أسباب هذا الموقف أنهم حفظوا القانون الحالى بصيغة مع شروحه الفرنسية وغيرها ، وأصبح من السهل الرجوع إليها ، على عكس القوانين الشرعية الجديدة التى سيحتاجون أمامها إلى العكوف عليها ، والرجوع إلى شروحها فى كتب الفقه المعروفة وهى تمثل صعوبة بالغة بالنسبة لهم .

ولربما كان هذا من أسباب الاتجاه إلى مراجعة القوانين الحالية وتنقيتها مما يخالف الشريعة . . لأن هذا الاتجاه سيؤدى إلى الإبقاء على نحو ٩/١٠ تسعة أعشار القوانين الحالية بدون تغيير

تقريباً لأنها غير مخالفة للشريعة فتكون داخلة فى مجالها ، وتأخذ الجنسية الاسلامية ، باعتبارها اجتهاداً قائماً على المصلحة . .

ولانزال فى انتظار تأليف هذه اللجان والانتهاء من العمل فيها ، ونرجو أن يتم ذلك قريباً ، وتبقى المواد الخاصة بالربا والحدود والعرض . وهذه نعمل على تطبيق مايمكن منها ، ولو بالتدريج .

قال صاحبى : نرجو . . وسيذكر التاريخ كل الرجال الذين ساهموا فى هذا التحول ، والعهد الذى تم فيه ، كما نذكر الآن بالأسى الرجال والعهد الذى تم على يديهم فيه إدخال القوانين الغربية علينا فى القرن الماضى .

قلت لصاحبى : نعم سيذكرونهم ، لكن سيبقى على الشعب الجانب الأكبر والمهم من تطبيق الشريعة . . فليس تطبيق الشريعة قاصرا على هذه المواد ، ولكن التطبيق أيضاً يجب على الشعب سواء فيما نصت عليه هذه القوانين ، أو فى الأمور الأخرى الشرعية التى لا تتناولها القوانين عادة ، ولكن يلتزم بها الشعب أمام ربه ، كدين يجب العمل به .

فكما أن الشعب طالب الحكومة وألح عليها بالاحتكام لشرع الله ، يجب عليه أن يلتزم هو أيضاً بشرع الله فى سلوكه ، وأن يتأدب بآدابه ، حينئذ يمكن أن ينتج التطبيق ثمرته الحلوة التى نرجوها للمجتمع ، ونتذكر قوله تعالى :

﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقا ﴾ .

وإلا فإن القوانين الشرعية لا تأخذ طريقها للتنفيذ ، وتحقيق فائدتها ، إذا لم يلتزم الشعب بواجباته الشرعية ، نريد شهودا فيهربون ، وإذا شهدوا فإنهم يكذبون .. الخ .

فالمهم الأخير أن يتوفر مع القوانين الشرعية التى تسنها الدولة ، مناخ دينى وأخلاقى فى الشعب يهيىء للثمرة التى نرجوها .

قال : هذا صحيح وضرورى .. وإلا ففى قوانيننا الآن مثلاً تحريم الرشوة ، والغش ، كما يحرمهما الدين ، ولهما عقاب فى قوانيننا ، والناس تعرف أن الله لعن الراشى والمرتشى ، ومع ذلك لايلتزمون لا بالدين ولا بالقانون ، ولذلك نجد الرشوة منتشرة . فأهم شىء فعلاً مع هذه القوانين الشرعية ، أن يلتزم الشعب كذلك من جانبه بتطبيق آداب الدين وأخلاقه ، حتى يكون صادقاً مع الله ومع نفسه .

ولقد وصلنا إلى نقطة متقدمة جداً على طريق إصدار القوانين لشرعية بعد أن انتهت منها اللجان وأحيلت إلى رئاسة مجلس الشعب ، وحولها الرئيس إلى اللجنة التشريعية لنظرها ثم عرضها على المجلس تمهيداً لإصدارها رسمياً . .

لكن انتهت دورة المجلس ، وجاء مجلس جديد ، ويقتضى الأمر أن يعاد العرض على اللجنة التشريعية من جديد ، وظهر طريق آخر بديل هو غربلة القوانين القائمة على ضوء الشريعة ، وجد فى الساحة ما اقتضى التريث وإعادة التفكير على ضوء ماجد . ولانزال . .



فكانت الصدمة أو النكسة

ومع الأسف الشديد جاءت هذه النكسة أو الصدمة لتطبيق الشريعة على أيدى هؤلاء الشباب من المسلمين الذين أعلنوا أن مهمتهم الأولى الدعوة إلى الدين ، وتطبيق الشريعة فى المجتمع المسلم !! فوضعوا بأعمالهم وتصرفاتهم الطائشة الكثير من الألغام فى طريق العاملين على تطبيق الشريعة بحكمة وروِيَّة .

وأعطوا المناوئين لتطبيق الشريعة والمتخوفين منها ، سلاحا يحاربوننا به ، وحجة يناوشوننا بها ، ويأخذون منا الكثيرين من المتعاطفين معنا إلى صفهم . . فقوى بذلك ساعدهم ، وكانوا من قبل يتوارون ويخجلون من المعارضة لنا ، لكن علا

صوتهم ، ووجدوا لهم حججا من التصرفات الهمجية السيئة ممن يدّعون الغيرة على الاسلام والدعوة إليه ، يرتكزون عليها ، ويخاطبون بها أفكار الشعب فى مجالسهم وأنديتهم وعلى صفحات الصحف . . يهاجمون تطبيق الشريعة . . ويضعون المحاذير أمام المسئولين .

وانضم إلى هذا ما جاءتنا به الأخبار من الخارج عن بعض دول إسلامية شرعت فى تطبيق الشريعة ، فاشتطت فى تصرفاتها ، وارتكبت بعض الحماقات فى تنفيذها . فأساءت أيما إساءة لمبدأ تطبيق الشريعة وأظهرتها بأنها ظالمة غير مضمونة النتائج ، وانتهزت وكالات الأنباء الغربية أو الشرقية الفرصة فأشاعت هذه الأحداث فى العالم الغربى على الأخص ، فكان لذلك كله رد فعله علينا هنا . . حيث أصبحت الشريعة الاسلامية متهمة فى نظر العالم بالتصرفات الهوجاء التى تصرفها بعضنا لحسابهم هم لا لحساب الشريعة ، ولكنها حُسبت على الشريعة . . فاعتبرت ضد حقوق الانسان . مع أن لحمتها وسداها ، أو لبها وهدفها الأول هو المحافظة على حقوق الانسان . .

وانضم هذا ــ كما أشرنا ــ إلى ما ارتكبه بعض الشباب ممن

اتخذوا «التيار الاسلامى» عنوانا لهم ، من تصرفات حمقاء ظالمة قالوا إنها من الدين ، والدين برىء منها ومنهم فى الحقيقة .

فقد قتلوا الأبرياء باسم الدين ، لمجرد أنهم مدانون فى رأيهم القاصر ، واستعملوا القوة والتهجم على إخوانهم المسلمين وإيذائهم ، لمجرد رأى سيىء رأوه فيهم فعمدوا إلى استعمال القوة معهم خارجين بذلك على الشريعة . . كما هاجموا غير المسلمين من المواطنين الذين «لهم مالنا وعليهم ماعلينا» واعتدوا على محلاتهم واستولوا على ماوجدوه من مال عندهم ، وقالوا : نستعين به على الدعوة إلى الاسلام !!!

واتخذوا من بعض رجال الدولة ، ورجال الأمن أعداء لهم طبيعيين يستحلون إيذاءهم وقتلهم ، كما اتخذوا من كل من ينصحهم ويخالف رأيهم عدوا لهم ، يضعونه فى القائمة السوداء لقتله . .

واعتبروا الحكومة أو الدولة كافرة هى ومن يعاونها ولايعارضها من الموظفين وغير الموظفين أعداء لهم . ولابد من تصفيتهم لأنهم كفرة أعداء يجب تطهير البلاد منهم . .

وتصرفوا كأنهم دولة داخل الدولة ،معتبرين أنفسهم ـ خطأ ـ

انهم مجاهدون يستعذبون كل ماينالهم نظير جهادهم ، وتحول الأمر بينهم وبين المجتمع إلى عصبية ، وكأن لهم ثأرا عند الدولة لابد أن يأخذوه ، وعلى الأقل يعارضون الدولة فى رأيها ، وفى كل ماتدعو إليه «عميانى» ، وبدون إبداء الأسباب ، حتى ولو كان فى مصلحتهم ، كالتعليم ، والتنظيم ، والأمن . . تقول الدولة : الشرق فيقولون سريعا : الغرب ، تقول : فوق ، يقولون تحت ، دون تفكير . . كانت الدولة مع العراق فى حربها مع إيران ، فكانوا هم مع إيران ضد العراق ، وحين اعتدى العراق على الكويت وقفت الدولة ضد العراق المعتدى وهذا حق وعدل ــ فوقفوا هم مع العراق ، عكس ماتقضى به تعاليم الاسلام من الوقوف لنصرة المعتدى عليه المظلوم ، ضد المعتدى الظالم ويؤولون النصوص الصريحة لتكون فى خدمة أهوائهم دون مبالاة أو حياء أو خوف من الله .

حتى وجدنا رئيسا أو قائدا لتيار إسلامى فى إحدى دول شمال أفريقيا يجهر بفجره فى تأويل الأحاديث فى مؤتمر إسلامى عقد فى الأردن أواخر ١٩٩٠ ويقول : إن العراق أخذ الكويت واحتلها على سنة رسول الله ــ كما يقال ذبحها على سنة الله ورسوله ــ كيف ؟

يقول ــ ولبئس ماقال ــ إن الرسول ﷺ يقول فى حديث صحيح «وكل مما يليك» . والعراق محتاج ، والكويت دولة غنية وهى جارة للعراق ، فأكل صدام مماىليه عملا بالحديث !!!! وصفق له المهرجون من الاسلاميين ، بينما استنكره قدامى الاخوان وأخذوا يتحدثون به فى كل مكان ، دليلا على تفاهة تفكير هؤلاء الذين ركبوا موجة الإسلام لتحقيق أغراضهم الخبيثة ، خداعا للجماهير المسلمة !

بينما الجملة التى استشهد بها هذا الدعى جملة من حديث لرسول الله ﷺ ، يعلم صبيا صغيرا آداب الطعام ، وجاء فى الحديث «أن يده ــ أى الصبى ــ كانت تطيش فى الصفحة» أى كانت تمتد إلى جوانب الطبق الذى يأكلون منه : كما نرى أحيانا بعض أطفالنا يفعلون ذلك فنقول له . . «كل من قدامك» وهو معنى «كل مماىليك» وجاء فى كلام رسول الله للصبى «ياغلام . سم الله ، وكل بيمينك وكل مماىليك» فأين هذا من ذاك ؟ ! ولكن هكذا يلعب الهوى والغرض بهؤلاء حتى يبرروا الباطل والزور باسم الاسلام ويقولون مع ذلك إنهم اسلاميون !! ويعملون على النهوض بالاسلام ويقودون ركب الصحوة الاسلامية !! ولبئس مايفعلون . .

وهكذا تأخذ الصحوة الاسلامية هذا الوجه المشوّه المستعار ، على يد الكثيرين من الشباب الطائش الحانق ، ويجدون ــ مع الأسف ـ من ينساق وراءهم من أمثالهم . ويملئون الشارع الاسلامى بلغو الباطل ، وبالمظاهرات والاصطدامات .

إن هؤلاء يشفى صدورهم أنهم يرفعون أصواتهم باسم الاسلام ولكنهم لاينظرون إلى ماوراء هذا الطيش واللغو بالباطل من عواقب سيئة تلحق بالاسلام .

لكن المتربصين بالاسلام ــ وهم كثيرون وفى كل مكان ــ قد استيقظوا وتحفزوا على الأصوات الخرقاء المدوية التى تنطلق من حناجر الذين اتخذوا الاسلام مطية لهم يركبونها لأغراضهم ، والذين ينضمون إليهم بحسن نية ، أزعجتهم هذه الأصوات ، وظنوا أن وراء الأكمة ماوراءها ، فبدءوا يضعون الخطط المضادة لها ، ليئدوها فى مهدها ، ويقضوا على كل صوت يمت إليها بصلة .

حقول ألغام

فأصبح الذين يعملون للإسلام ، وتمكينه فى النفوس ، واتخاذ تعاليمه وسيلة إلى نهضتنا يمشون على الأشواك ، أو وسط حقول ألغام ، بثها الجهلة الطائشون منا وأعداء الإسلام ،

المتربصون به ، الذين عرفوا ماضى المسلمين المزدهر ، ودولهم القوية التى سادت الأرض لعدة قرون، ثم انتقلت الكرة لغيرهم ، واستحوذ عليها ، وساعده على سطوته أو سيطرته علينا أننا تخلينا عن مبادئنا ، ونمنا نوما طويلا ، استمرأ فيه الغرب خيراتنا واستراح لاطمئنانه إلى أننا قوم نيام لانتحرك ولانتنبه له ولانغار .

فإذا بدا على النائم أنه يتحرك ، بدءوا يرتعدون ، ويخافون أن يستيقظ العملاق ، ويعمل على استرجاع ماضيه . . فيحرمهم خيراته ، لو ينازعهم القوة والسلطة على العالم ، وله ماض مشرف عظيم فى هذه الناحية . .

ولذلك فهم دائما يتربصون بالاسلام ، وبالدعاة له ، يلفقون عليه الأكاذيب ، ويلتقطون الأخبار التافهة فيكبرونها ، أو يولدون منها الشرور التى تخيف العالم من الاسلام والمسلمين ، يحاولون بكل وسيلة أن يعيقوا العملاق عن الحركة ، أو يظل فى قمقمه الذى نام فيه ليستريحوا ، يحسبون كل صيحة عليهم ، ويعتبرون صحوتنا ونهضتنا ضد حياتهم وضد لقمة الزبد التى يأكلونها ، ويخشون أن ينافسهم المسلمون فى السيطرة على العالم ، أو على الأقل يحاصرون نفوذهم ويقلصونه ، ولذلك

فإنهم لاينزعجون من أى شىء انزعاجهم من أية خطوة أو حركة يمكن أن تنهض بالمسلمين .. وقد ظنوا فى صيحات الشباب بالاسلام النذر الأولى للقضاء على وضعهم وترقبوا الخطر منهم ، لكنهم سرعان ماوجدوا فى طيش الشباب وتصرفاتهم سلاحا يحاربون به الاسلام وصحوته .

قبيل حرب ١٩٦٧ مباشرة وعندما طلب جمال عبد الناصر من القوات الدولية أن ترحل ، ظهر الرئيس السابق للولايات المتحدة حينذاك «إيزنهاور» فى التليفزيون الأمريكى يقول للشعب «إننا لن نسمح لعبد الناصر بالنصر ، والإ اغلق مضيق جبل طارق فى وجه الغرب وحول البحر الابيض إلى بحيرة إسلامية كما كان» .

وفى مجلس الشعب فى جلسات أوائل فبراير ١٩٨٩ طلب النائب الفاضل الدكتور محمد حسن الزيات الكلمة ليعلق على مناقشة دارت فى المجلس ـ وكان وزير خارجية مصر ايام الرئيس الراحل ويحمل ذكريات كثيرة ومهمة ، وقال فى المجلس ما ملخصه : «فى أوائل السبعينات قدم تقرير إلى الكونجرس الأمريكى . يتحدث عن التحديات التى تواجه الولايات المتحدة . أو الواقع العالمى آنذاك ، وذكر الكثير من التحديات

والاخطار ، وعلق الرئيس الأمريكى وقتها «ريتشارد نيكسون» على ماحواه هذا التقرير ، وقال : لقد استعرضت ما جاء فيه من تحديات ، ولم انزعج لأمر فيه كما انزعجت لما ذكره من أنه بدأت فى العالم الاسلامى صحوة إسلامية . ذلك لأن هذه الصحوة لو سارت فى طريقها لهددت حياتنا هنا وحياة زملائنا فى الغرب مستقبلا . ومن هنا يجب أن نأخذ حذرنا » .

وهناك الكثير غير هذا الذى ذكرته عن موقف الغرب عموما لا الولايات المتحدة وحدها من أية نهضة إسلامية ، وحرصه على أن يجهضها وهى فى مهدها ومن هنا قلت إن العاملين للدعوة أو للصحوة الإسلامية ، يجب أن يأخذوا فى اعتبارهم هذه الظروف ، وأنهم يمشون فى حقول الغام يجب أن يحسبوا حسابها حتى لاتنفجر فيهم وتفتتهم هم ومايحملون . .

لابد أن يعرف الداعية ومن يوجهه أن آلات الرصد والتصنت تحيط به وتلتقط كل كلمة وحركة وتحللها وتستشف من ورائها ماتستشف ، وتبنى رد فعلها . .

عليه ـ وهو يمسك بدفة السفينة ويوجهها ويقيها الأخطار ـ أن تكون بصيرته يقظة . تنفذ إلى كل ماحوله . . ويقدر لرجله

قبل الخطو موضعها .. ولاتكفى الغيرة الدينية وحدها لدى الداعية المتحمس لدينه ، فقد تكبه الغيرة وحدها على وجهه ، وتهشم عظامه ، وتشل حركة تفكيره وتمييزه ، فلابد من البصيرة والوعى المتفتح على العالم وتياراته مع الغيرة والحماس ، حتى يأمل ويأمن الداعية السير على الطريق الذى ينتهى به إلى هدفه المأمول متجنبا عثرات الطريق . .

إن موقف الداعية لدينه فى منتهى الحساسية ، سواء على المستوى المحدود الذى يعيش فيه ، أو على المستوى الأوسع ، فكلا المستويين يحسب عليه أقواله وحركاته ، ويبنى على ذلك موقفه منه ومما يدعو إليه . .

ولم يعد هناك مايمكن إخفاؤه عن الناس ، فالحادث فى القرية الصغيرة فى ريف مصر ، أو بادية الصحراء ، يمكن أن تجد صداه فى الصحف المحلية والعالمية وفى الإذاعة المحلية والإذاعات العالمية ، لاسيما الصحف والإذاعات التى تستغل ماتشاء من أخبار وأحداث لمصلحة لها وهدف ترمى إليه . . وكثير مانجد أحداثا أهملتها أجهزة الاعلام المحلية ، تحتفل بها وتضخمها الأجهزة العالمية . . ولها مندوبوها الذين يغذونها بكل صغيرة وكبيرة على هواها . .

فحادث تقوم به جماعة متطرفة فى قرية نائية ، قد تهمله أو تغفله الأجهزة الإعلامية لسبب من الأسباب ، ولكن الأجهزة العالمية تجد فيه صيدها فتسارع بنشره والتعليق عليه بما تهوى . .

ونحن كثيرا مانسمع بعض أحداث فى مصر من إذاعات خارجية . . وقد تكون صغيرة لاتستحق الاهتمام عندنا ، ولكنها تكون موضع اهتمام الآخرين لحاجة فى نفوسهم . .

ولهذا أقول لبعض الشباب المتطرف ، الذى يجرى وراء طيشه أو حماسه ، لاتظن أنك فى قرية نائية تلعب فى الطين أو التراب ، وتشاكس هذا ، وتعتدى على ذاك ، ثم يمر هذا وذاك فى القرية لايخرج عن حدودها . . لا . . إن هناك أجهزة رصد واستشعار عن بعد ، يهمها أن تحصى كل تصرف يخدمها فى أغراضها . . ويهم الذين يترصدون الصحوة الاسلامية أن يجدوا الكثير من التصرفات الشائنة التى تصدر عن أناس ينطقون باسم الاسلام ، ليضربوا بها الصحوة الاسلامية ويئدوها فى مهدها . .

فتصرفات القتل والضرب والاعتداء التى تصدر عن شباب يدعى العمل للاسلام هى خير سلاح يعطيه المترصدون للاسلام لكى يضربوه به . ويقولوا لشعوبهم بل للشعوب الاسلامية

أيضا . هذا هو الاسلام وهؤلاء هم رجاله ، وهذه هى تصرفاتهم ، والمغزى لهذا كله : هل تريدون أن يحكمكم الاسلام ويحكمكم رجال من هذا النوع ، الذى ترونه يقتل ويضرب ويعتدى ويخرب ويصنع القنابل ، والحارقات ، ويكدس الأسلحة ، لينازل بها إخوانا له وجيرانا من شعبه المسلم وغير المسلم .. إن هذا نموذج مصغر لما ينتظركم من حكم الاسلام ورجاله حين يحكم ويحكمون..

وهكذا تعملون أيها الأبناء . بحماسكم الذى لارابط له ولا حدود يقف عندها ضد دينكم الذى تتحمسون له . . وأنتم غافلون . . وتمكنون منه أعداءه وأنتم تظنون أنكم تخدمونه ، وتتقربون بأفعالكم الطائشة إلى الله تظنون والظن لا يغنى عن الحق شيئا ، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ومقاييس الشرع الثابتة من القرآن أو السنة تدينكم وتدين تصرفاتكم الشاذة عن قواعد الاسلام ومبادئه وآدابه . .

فليس من مبادىء الاسلام وآدابه أن يقيم أفراد لأنفسهم دولة داخل الدولة ، فيفتون حسب مايريدون ، ويحكمون على هذا بالكفر ، وذاك بالفسوق ثم ينفذون حكمهم ، خارجين بذلك على جماعتهم ونظامهم محاربين لدولتهم معرضين أنفسهم

لخطر أشد ، لمجرد أنهم يحاربون معصية من المعاصى فى ظنهم كالذين اعتدوا على حفل فيه موسيقى يقيمه الطلاب والمدرسين آخر العام فى مدارسهم كالعادة على اعتقاد أن الموسيقى حرام .. والتحقيق أنها ليست بحرام إلا إذا كانت تشجع على معصية . وما كانت الموسيقى البدائية فى حفل المدرسة مشجعة على معصية اخرى كشرب الخمر والرقص الخليع المثير .. فى قرية من قرى الصعيد .

ولكن هكذا رأى بعض الشباب ، وهم غير فاقهين لأحكام الشريعة ، فهاجموا الطلاب الصبية وأولياء أمورهم والمدرسين والناظر وضربوهم بالجنازير وقرن الغزال وما حملوه من أسلحة فاتكة ..

ومن آداب الدعوة ، أن يكون الداعى رفيقا فى دعوته ، وألا يترتب على دعوته منكر أشد من الذى يدعو لإزالته ، والحديث الشريف الذى رواه «الديلمى» وروى غيره مثله : «لاينبغى للرجل أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يكون فيه خصال ثلاث : رفيق بما يأمر ، رفيق بما ينهى ، عالم بما يأمر به وينهى عنه» وفى حديث رواه أحمد «من أراد أن ينصح لسلطان بأمر فلا يبده له علانية ــ وهذا أدب عام فى النصيحة ــ ولكن فليأخذ

بيده ويخلو به فإن قبل منه فذاك ، وإلا كان قد أدى الذى عليه» وخرج من العهدة . . وإذا كان الذى يريد أن ينصح الحاكم أو يبدى رأياً ، لايستطيع الآن الوصول إلى شخص الحاكم .

ولا أن يأخذ بيده إلى ناحية فينصحه ، فإن فى الصحف مجالا لابداء الرأى فى أى موضوع من الموضوعات كما نرى الكثير من هذا ونقرؤه وكذلك فى الخطابات التى يمكن إرسالها إليه بسؤاله . . والمهم فى هذا الحديث . . وله شواهد من احاديث أخرى أنه حدد وظيفة الناصح والآمر بالمعروف فى أنه يؤدى الذى عليه بالنصح والتوجيه ، أما ماوراء ذلك من تنفيذ لكلامه ونصيحته ، فيتحمله الآخر ، وليس للناصح الآمر أن يقحم نفسه على الأداة التنفيذية فى الدولة ويأخذ التنفيذ على عاتقه ، وليس له أن يخرج على الإمام والحكم فى الدولة بحجة أنهم لم ينفذوا نصحه ورأيه ، فإنما عليه ماحُمِّل ، وعليهم ماحُمِّلوا .

فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ . . أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ، ويمنعونا حقنا ، فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه ، ثم قال له : اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حُمِّلوا ، وعليكم ماحُمِّلتم» رواه مسلم .

وفى حديث متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه

قال رسول الله ﷺ أنها ستكون بعدى إثرة (أى حب للنفس) وأمور تنكرونها . قالوا : يارسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك ؟ قال : تؤدون الحق الذى عليكم ، وتسألون الله الذى لكم.. وتدعونه لعله سبحانه يوفق الحاكم لعمله . ولم يقل لهم : أخرجوا عليهم ونفذوا رأيكم رغم أنف الحاكم ، لما يترتب على ذلك من فوضى واختلال بأمن الدولة ونظامها. والرسول ﷺ يقول : « من خرج على الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية» رواه مسلم « لأنه يكون بذلك قد خرج على جماعة المسلمين وعلى النظام الحاكم فى أمر لايستدعى هذا الخروج ولايقره . . فيحدث تفككا فى نظام الدولة يضعف من شأنها أمام خصومها . . ويغريهم بالاعتداء عليها . . فمن الأمور المهمة بالدرجة الأولى فى الإسلام أن تنتظم أمور أية جماعة إسلامية صغيرة أم كبيرة فيكون لها من أمورها ويقودها إلى مايصلح شأنها ، ومن هنا قرر رسول الله ﷺ : أنه إذا كان منكم ثلاثة فى سفر فليؤمروا عليهم أحدهم ، ليكون راعيا وضابطا لأمورهم .

وهذا هو ماتدعو إليه طبيعة الحياة ، ولذلك تجد أن الرحلات السياحية والرياضية لابد أن يكون لها منظم ، والحجاج حين

أتلف بعضهم مع بعض يقررون فيما بينهم واحداً منهم يباشر شئونهم وينظمها لاسيما فى المصاريف التى يشتركون فيها جميعا نظرا لتجمعهم فى المسكن والطعام .. وهكذا ...

والخروج على هذا النظام مدعاة للتفتت والاختلاف واعجاب كل ذى رأى برأيه ، ولايمكن أن تقوم لأى مجتمع قائمة ، مالم تنتظم أموره ويعرف كل فرد حدوده ومجاله الذى يتحرك فيه ..

فإذا قامت حكومة فى دولة إسلامية ولو لم تكن بالانتخاب بل بالغلبة والقوة كالثورات التى تقوم فى بلاد العالم الثالث الآن فإنها تهتم بوضع النظام الذى تراه كفيلا بتوفير الأمن والتنظيم والاستقرار .. ويصبح على الناس حينئذ ألا يخرجوا عليه ؛ لمصلحتهم ولمصلحة دولتهم .. حتى يتفرغ كل لأداء مهمته تحت حراسة النظام العام ..

ومن التهلكة للأفراد وللدولة معا ، أن يتاح للفرد الخروج على هذا النظام ويشغل نفسه ودولته بهذا العصيان والتمرد ..

والاسلام يوصى أتباعه فى مثل هذه الحالة بالسمع والطاعة للحاكم ولو كان عاصيا ، بل والصلاة خلفه إلا أن يظهر منه كفر بواح صريح بالله ورسوله حينئذ يصبح من الواجب على

المؤمنين بالله ورسوله أن يقاوموه ، أما ماعدا ذلك مما هو أقل من الكفر بأن يكون معصية من المعاصى فما على الرعية إلا إبداء رأيها بالنصح المناسب له .. ولايترك الأمر فى ماهية المعصية لعامة الناس ، بل ذلك للمتخصصين فى أمور الشريعة ، ومعرفة ماهو معصية وماهو غير معصية ..

أعنى لايترك الأمر لمزاج الأفراد وأهوائهم أو آرائهم غير المدروسة وإلاصار الأمر فوضى ، ولم تنتظم للمسلمين حكومة ترعى شأنهم ، وتذود عنهم الاعتداءات الخارجية عليهم ..

والدليل أمامنا ملموس ، فقد رأينا بعض الشباب المتحمس المندفع يصدر أحكاما على بعض الناس بأنهم فعلوا أو يفعلون معصية كذا ، فى الوقت الذى لايعد العلماء هذا العمل منهم معصية ..

والأخطر من هذا أنهم يتبعون حكمهم الذى يمكن أن يكون خطأ بأن يقوموا هم بتأديب العاصى ، وضربه واتلاف ممتلكاته والاعتداء على حرماته .. وكأنهم دولة داخل الدولة ، وكأنهم مسئولون أمام الله عن تنفيذ حكمهم .. وهو خطأ قاتل يؤدى إلى إيقاعهم فى مخاطر كان أهون منها أن يتركوا ماظنوه معصية دون التعرض له ..

فهناك شيء فى الشريعة اسمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وشيء آخر اسمه تنفيذ المعروف وتغيير المنكر . .

والأول واجب على المسلمين فى حدود استطاعتهم وعلمهم ونطاقهم الذى يعملون فيه ، أو فى طريقهم إذا رأوا أمراً يستحق النصيحة ولكن بالتى هى أحسن ، أى بالكلام الهادىء اللين المناسب لمن يكلمه دون أن يخلق مشاكل ومعارك بينه وبين الذى ينصحه ، فإذا عرف أنه لايقبل منه أى نصح ، فعليه أن يريح نفسه ولايخلق لها مشاكل . .

وهذا أدب من آداب الدعوة إلى الخير . . فلا تدع لخير يترتب على دعوتك إليه شر لاتطيقه وأنت فى غنى عنه ، لأن الشرع يريحك ويوفر عليك المشوار . . ويسد باب الشرور . .

وإذا شاهدت منكراً فلا بد أن تقدر الظروف قبل أن تقدم على خطوة من الخطوات ، فقد تجد مجرد كلامك مع الولد الشقى الذى يتلف بمسمار فى يده جسم سيارة من السيارات ، رادعاً له . . فعليك ان تقدم على هذه الخطوة ، وإذا رأيت صبيا أو غيره فى يده موسى أو مطواة يمزق بها جلد الكراسى فى السيارة أو القطار ورأيت أن كلامك سيردعه فلابد أن تتكلم . . وإذا

رأيت سارقا يتسلق المواسير ، أو حاملا لبعض المسروقات فعليك أن تستنهض من حولك لتمسكوا به . . وإذا رأيت جاسوسا أو عرفت ارهابيا يعد لجريمة وبإمكانك أن ترشد عنه ، فعليك أن تفعل وهكذا فى الأمور التى تقدر عليها . .

ولكن قد ترى نشالا مسلحا سيسرع بالاعتداء على حياتك لو نصحته ، فإن من الأولى لك ألا تعرض حياتك لهذا الخطر وتفقدها ، فالمال أرخص من الحياة . .

ففى الأمور السهلة التى يؤثر فيها تدخلك لتغيير المنكر عليك أن تتدخل لإزالته ، أما إذا رأيت الأمر أكبر من حجمك وقدرتك فلا تعرض نفسك للخطر وتجابه المجرم وفى يده السلاح يقضى به على حياتك . . فتغيير المنكر باليد له حدود . . والدولة هى المسئولة أولا وأخيرا عن إزالة المنكر بالقوة والبطش ، أما أنت فمساعد لها تتدخل فيما يمكنك التدخل فيه دون خطر شديد عليك . .

أما أن تؤلف جماعة معك تعتدى معها على من تسير مكشوفة الرأس أو لابسة الملابس القصيرة وتشتبك مع زوجها ومعها أو مع أخيها وابيها ويسقط منهم ومنكم ضحايا ومصابون فلا . .

لأن الأمور ستنقلب إلى فوضى .. لو تركتك الدولة تتصرف كما تريد ..

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مجاله أوسع لكن مع ذلك له حدود وضوابط حتى لاينتج شرا أكبر ..

أما تغيير المنكر باليد فالأصل فيه المنع البات وترك الأمر للدولة التى تكفلت بهذا .. وهى القادرة عليه والمؤهلة له ..

مالم يكن الأمر سهلا يكفى فيه مجرد التنبيه والردع الكلامى وتعريف الجانى أنه إن عاند وقع فى شر خطير .. كالأمثلة التى سبق ذكرها ، فيلوذ بالفرار ، وعليك إن استطعت وأمنت على نفسك أن تمسك به .. أما أن تقف فى وجه الشعب وتنازع الدولة سلطاتها ، وتعتدى على الناس ، فليس ذلك لك ، لا شرعا ولا عقلا ، وإذا أقدمت عليه كنت الملوم والمؤاخذ أمام الدولة وقوانينها ، وليس لك أن تتمحل الأعذار وتقول : إننى أعمل على إزالة معصية .. لأنك قد قرنت بنيتك اعتداء فعليا على الآخرين وعلى الدولة وسلطاتها وتعديت حدودك ..

هذه هى الضوابط الشرعية التى انتهى إليها المشرعون والأئمة من زمن قبلنا .. وهى محدودة ومحكومة بمصلحتك ومصلحة المجتمع الذى تعيش فيه .

لكن أبناءنا ــ مع الأسف ــ لايعرفون هذه الحدود بل يعطون أنفسهم الحق فى تغيير المنكر بأيديهم ، ويقولون نحن نعمل بالحديث «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده» وقد وضع العلماء للتغيير باليد حدودا ، وأهمها إن استطاع ولم يترتب على التغيير باليد منكر وشر أخطر من المنكر الذى يريد إزالته ، سواء أوقع عليه هو هذا الشر ، أو وقع بالمجتمع . . «فإن لم يستطع فبقلبه» .

فإن ترتب عليه هذا كان عليه أن يكف ، وليس له أن يقول : إننى أتحمل هذا الشر فى سبيل الله ، لأن الله لم يكلفه بهذا بل ولايقبله منه وهو سبحانه يقول «ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة» وهذه الآية وإن نزلت فى سبب خاص ، إلا أنها صارت كقاعدة عامة تحكم تصرفات المسلمين ، على أن تصرفه لن تقف آثاره السيئة عنده ، بل لابد أن تتعداه إلى غيره ، فإذا تحمل هو القبض عليه وسجنه ، فإن الناس الذين وقع عليهم منه الضرر لهم حقوقهم ، وغالبا مايقومون بأخذ ثارهم منه إن استطاعوا ، فإن لم يستطيعوا أضمروا له العداء وانتهزوا أول فرصة للانقضاض عليه . .

وهكذا يحدث فى المحيط الذى يوجد فيه ، شقاقا ونزاعا وقطيعة ، وتربص بعضهم ببعض .

وقد وجدنا أمثلة لهذا من تصرفات حمقاء لبعض هؤلاء الشباب فى قراهم ، كان لها أثرها السيىء فى النفوس ، مما حدا ببعض سكان هذه القرى أن يعينوا الشرطة للقبض على هؤلاء الشباب والتنكيل بهم . . ولايكاد يمر بنا أسبوع ، بل يوم ، حتى نقرأ فى الصحف نبأ القبض على بعض هؤلاء ، وضبط أسلحة متنوعة وقنابل من صنعهم فى منازلهم ومحال إقامتهم . . فلمن أعد هذا الشباب الطائش المسكين كل هذه الأسلحة ؟ هل أعده لعدو لوطنه أو دينه ؟ كلا ، ولكنه أعده لإخوان له مواطنين ، أو لرجال الشرطة حين يحاولون القبض عليهم ، ولايتقهقر رجال الشرطة أمامهم ، بل يضاعفون من إطلاق النار عليهم ، ويسقط من هذا وذاك ضحايا . . فلحساب من يفعل الشباب الطائش هذا كله ؟ وهلا ادخروا جهدهم ووقتهم وذكاءهم لعمل نافع لهم ولمن حولهم ؟ إنهم مهما استعملوا القوة ، وحاولوا التخفى لن يفلتوا من قبضة الشرطة ، ومن العقاب فلماذا يا شباب هذا كله ؟ ولماذا تثيرون الناس عليكم وتزرعون كراهيتكم فى قلوبهم ؟ وهل بمثل هذا وفى هذه الحالة تكونون قد دعوتم للاسلام وجذبتم من حولكم إلى تعاليمه أو تكونون قد نفرتموهم منكم ومن دعاة الاسلام ؟ . . وهل تخدمون

الاسلام أو تخدمون أعداءه ؟ هل تقربون الناس إلى الاسلام أو تبعدونهم عنه وعن كل داعية إليه ؟

وإذا تركنا هذا الجانب العنيف المدمر من بعض الشباب ، فإن لهم أفكاراً أخرىّ لاتقل خطرا على المجتمع والاسلام عن هذا العنف . .

فإننا نعلم عن بعضهم أنهم يدعون إلى الجهل وعدم التعلم لتكون الأمة أمية لاتقرأ ولا تكتب كما كان العرب حين بعثه الله ويحسبون أنهم بذلك يحسنون الاقتداء بالرسول ، ولم يعرفوا أن الرسول ﷺ جعل فداء الأسير فى بدر إذا كان يعرف القراءة والكتابة أن يعلم عشرة من الصحابة ويحولهم من أميين إلى عارفين ويزيل عنهم قبح الأمية . .

وبعضهم يدعو إلى عدم تعليم المرأة حتى لاتتخذ التعليم وسيلة إلى الشر ! وهل الجاهلات تطهرن من الشر الذى يخافونه من المتعلمة ؟ وإذا كان الأمر كما يقولون فلا داعى لتعليم البنين أيضاً مادام التعليم يغرى بالشر ! وهل الجاهلون ترونهم متطهرين من الشرور ؟

ويسمع الناس هذا الكلام منهم باسم الإسلام فيكون الرد العفوى عليه :

إذا كان هذا هو الاسلام فما لنا وللاسلام . . إذن . . نريد ان نتعلم كما تعلم الغربيون وخدموا أنفسهم وسيطروا على العالم بعلمهم .

أليس فى المتعلمات عندنا نابغات فيما تخصصن فيه يخدمن دينهم ووطنهن وأنفسهن ؟ وهل الاسلام اعتبر المرأة رجسا وشيطانة حتى تحاصروها هذا الحصار ، وتمنعوها حقها فى الحياة ، والله سبحانه يقول «ولهن مثل الذى عليهن» ويقول «فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض» المائدة ويقول «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّه حياة طيبة» أى فى الدنيا «ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» أى فى الآخرة الرجل والمرأة سواء «فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا» .

هل بمثل هذا التخلف العقلى المريض يدعون إلى الاسلام فى هذا العصر الذى نعيشه ؟ ويطمعون مع ذلك فى أن تكون للمسلمين نهضة وقوة على أيديهم ؟

ولماذا يقلق الغربيون «الهُبل» من أمثال هؤلاء ؟ انهم أكبر عون لهم فى خنق الأمة الاسلامية وركوب ظهرها ، وسحبها

بخطام فى رقبتها . وتترك خيراتها لهم حلالا يتمتعون بها كما يشاءون ، ويرمون الفتات لهذه الأمة الجاهلة أو لهذا القطيع من المسلمين الذين يربيهم مبعوثو العناية الإلهية من الشباب الجهلة الطائشين !!

إن على الغرب أن يعيد حساباته ـ إذن ـ على ضوء ماظهر ويظهر كل يوم من هؤلاء الجهلة الذين ادعوا الغيرة على الاسلام ، ويمد لهم فى الغى والجهل والدعوة إليه وما أكثر مانرى من طغيان الحشائش والنباتات الطفيلية على الزرع الذى نزرعه بأيدينا فيقتله أو يذبله ويفقده نموه . .

هذا إن لم يكن هؤلاء فعلا هم أيادى وأفكار الغرب الآن لطمس معالم الإسلام الصحيح ، وإصابة الصحوة الإسلامية فى مقتل على أيدى من يلبسون ملابس الدعاة . .

لقد استفز هؤلاء الطائشون الجهلة بسلوكهم وأقوالهم فضيلة الأخ الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالى الذى وقف حياته للدفاع عن دين الله والدعوة المستنيرة إليه ، استفزوه حتى قال عنهم «إنهم يصلحون للعمل فى أسواق الماشية ، ولايجوز أبدا أن يتحدثوا عن اسلام لم يفهموه ، ولم يرتفعوا لمستواه» .

ومزق نفسه مابلغه من أن طالبه ساذجة فى أحد المعاهد سمعت مايقوله الدعاة الجهلة عن المرأة فى الاسلام ، فقالت لأمها فى سذاجة وفى ضيق «أما يوجد دين آخر يا أماه أرفق بنا من هذا الاسلام ؟ !!..إلى هذا الحد ينجح الدعاة الجهلة فى خدمة الاسلام ؟ !! أو فى الصد عنه !!

أولئك الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً

فهل يريد أعداء الاسلام لقطة هنيئة كتلك اللقطة أو الهدية التى يجدونها فى هؤلاء ؟

وهل يجدون أسلحة قوية لطعن الاسلام الآن كتلك الأسلحة التى يقدمها لهم هؤلاء على أطباق من الذهب ؟

فيالها من صدمة ونكسة تصاب بها الدعوة أو الصحوة الإسلامية على يد هؤلاء الذين يملئون الجو صياحا بأنهم أنصار الإسلام ودعاته !!

إن الاسلام ليصرخ الآن وقد أثخن هؤلاء فيه الجراح : اللهم احمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم» إن كانوا حقا من أصدقائه ، ولم يكونوا عدوا فى ثياب صديق . . .

إن ماينشر ويذاع عن هؤلاء بتسميتهم : جماعات إسلامية يجب أن يختفى سريعا ويتغير للتسمية الحقيقة الواقعية لهؤلاء فليسوا كما يدعون أو يكتب عنهم جماعات إسلامية ، فقد صاروا جماعات إرهابية لا اسلامية ولايمتون للاسلام بصلة . . بل هم نكسة ومصيبة على الإسلام . .

وإذ سماهم الغرب : جماعات إسلامية ، فيجب علينا نحن البصيرين بهم ويكنه مايفعلون أن نخلع عنهم هذا الاسم ونسميهم الأسماء الحقيقة التى تنطبق على أفعالهم وأقوالهم . .

إنهم جماعات إرهابية مخربة للإسلام عدتهم فى حياتهم القتل والارهاب والحرق والتدمير والاعتداء والتخريب .

وأخبار الصحف أمامنا كل يوم ، ولاتكاد تخلو صحيفة من أنباء التخريب الذى يفعلونه وأخبار الأسلحة التى تضبط فى حوزتهم . . وكأن هؤلاء قد تفرغوا لهذه الحوادث الاجرامية !!

وأمامى الآن صحيفة تذكر أخبار التحقيق مع ستة من هؤلاء فى بنى سويف اشتركوا فى إحراق صيدليتين ، ومعرض ومحل بويات ، وسبقت أخبار هؤلاء عن الاسلحة التى ضبطتها الشرطة عندهم ! حتى أصبح الجهد الأكبر للشرطة منصرفا

لمراقبتهم وتتبع الأحداث التى يرتكبونها ، وضبطهم والتحقيق معهم . .

فهل يمكن أن يكون هؤلاء جماعات إسلامية ؟ وهل يشرف الاسلام والمسلمين أن يكون الاسلام عنوانا لهم ؟

إننا نشترك معهم فى إلباس الاسلام،هذا الثوب القبيح وهو برىء منهم ، ومن الواجب أن يأخذوا الاسم الحقيقى لهم مستمداً من أفعالهم وأقوالهم ، ونتجه إلى الآية «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساد . . عن الاسم المناسب لهم ولما يرتكبونه من جرائم ، معتمدين على قوة السلاح الذى وفروه لأنفسهم . . فيروعون الآمنين فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، مستعملين فى ذلك وسائل القتل والتحريق والاعتداء على الأموال ، مما لايقره الاسلام ولا أى دين سماوى ولا أي قانون وضعى ويخرجون بذلك على الأديان والقوانين التى وضعت لصالح المجتمع وتوفير أمنه . . .

إنهم بلا شك فى هذه الحالة يكونون محاربين لقانون الله ورسوله ، ناشرين للفساد فى الأرض ، حتى ولو فعلوا ذلك باسم الرغبة فى تنفيذ شريعة الله . . فهذه الغاية ــ حتى ولو

كانوا صادقين فيها ــ لاتبرر الوسيلة التى يتخذونها ، من القتل والاعتداء على المسلمين وعلى الآمنين من غير المسلمين . . فالاسلام لايعرف مبدأ : الغاية تبرر الوسيلة ، بل لابد عنده من أن تكون الغاية شريفة ، ووسائل تحقيقها شريفة أيضا . . وماذا فعل الناس حتى يستحقوا مايحصل لهم على أيدى هؤلاء ؟ فالدين لايقر قتل إنسان لأخذ ماله للإنفاق منه على الدعوة فى سبيل الاسلام .

كما لايقر الاعتداء على خزينته ــ مسلماً كان أو غير مسلم ــ لأخذ مافيها للإنفاق منه على بناء مسجد ، أو توفير مصاريف الدعاة للإسلام . .

كما لايقر أيضا اعتداءهم على من يحولون بينهم وبين ارتكاب هذه الشرور التى لايقرها الاسلام ، أو على من يؤدون واجبهم فى حفظ أمن المجتمع الذى يعيشون فيه ، كالذين قتلوا شرطيا أمام داره لأنه يؤدى واجبه الوظيفى فى حفظ الأمن ، وقتلوا بعض الضباط ــ هكذا . . تلقائيا لأنه ضابط شرطة ــ لأن ضباط الشرطة أو ضباط الأمن يحولون بينهم وبين الاعتداء ، أو يقبضون عليهم وعلى أسلحتهم ويقدمونهم للتحقيق !!

وقد يقول قائل : تسميهم محاربين لله ورسوله وللمجتمع ،

حتى ولو كان الحاكم لاينفذ شريعة الله تنفيذا كاملا ؟

وأقول له : فى رأيى: نعم أسميهم خارجين بعملهم هذا على حكم الله ورسوله لسببين : أولهما : أن حكم الله ورسوله فى الدعوة للشريعة : أن تكون بالتى هى أحسن وليس القتل والاعتداء على إخوانهم المواطنين مما أباحه الله لهم فى سبيل الدعوة ، فيكون من يرتكب ذلك ولو باسم الدعوة خارجا على حكم الله ورسوله . . وثانيهما : أننا لو أبحنا الخروج على أحكام القانون فى بلد لاينفذ حاكمه شريعة الله كاملة . . لأدى ذلك إلى فوضى لانهاية لها فى سفك الدماء والإخلال بأمن المجتمع ، ومحاربة الحاكم الذى يحافظ على الأمن .

وذلك فى الوقت الذى نهى فيه رسول الله ﷺ عن الخروج على الحاكم ومحاربته حتى ولو كان يرتكب بعض المعاصى ، وأمرنا بأن نصلى خلفه ، ونطيعه مالم نر منه كفرا بواحا صريحا ، كاستهزائه العلنى بالله أوبرسوله ، أو بالقرآن ، واستهجانه علنيا الصلاة أو فرضنا مفروضا على المسلمين ، أو حكما جاء به القرآن صريحا لا تأويل فيه أو له . . أمرنا أن نطيع الحكام ما أقاموا فينا الصلاة ويسروها للناس تعليما وأداء . .

وقد ذكرنا قريبا الأحاديث الدالة على ذلك . . والتى أمر بها

الرسول لحفظ المجتمع المسلم من التفكك ومحاربة بعضه لبعض ، فتضعف قوته ويصبح لقمة هنيئة لعدوه . . فيسيمه الخسف والهوان . .

والحاكم والحمد لله مؤمن يدعو إلى الاسلام والتمسك به فى أحاديثه العلنية ويقرر ويدعو الجميع إلى مايقرره من أن الدين هو الأساس المكين لأى إصلاح . والدولة تنفق الكثير على تعليم الدين والتعمق فيه ، وعلى إقامة المساجد ، والدعوة إلى الإسلام ، وتدرك أن أكثر القوانين القائمة لاتخالف الشريعة ، فحين تطبقها المحاكم لاتحكم بغير ماتجيزه الشريعة وتقره ، ماعدا بعض موضوعات تختص بعقوبة من يقترف جريمة منصوصا عليها ، وموضوع الربا الذى لايمكن القضاء عليه بجرة قلم . . تؤمن الدولة بها ، لكنها ترى نفسها الآن غير قادرة على تنفيذها لظروف تحيط بها ، ولايمكن إهمالها وتخطيها . . فليس هناك ـــ إذن ـــ مسوغ أمام هؤلاء لأن يفعلوا مايفعلون من قتل واعتداء وترويع وإفساد للأمن . .

ثم إن السلطة التنفيذية فى الدولة تقوم بواجبها فى حفظ الأمن للمواطنين لكى ينطلقوا إلى أعمالهم فى توفير المعيشة لهم على قدم المساواة ، دون تمييز بينهم ، فالكل أمام القانون سواء . . أليس

هذا هو مايريده الاسلام من الحاكم ويقره عليه ؟ وقد فتح المجال أمام المواطنين الذين يتضررون من السلطة التنفيذية ليلجئوا إلى القضاء ، وقد حكم القضاء فى بعض القضايا للمواطنين وأدان السلطة التنفيذية ، وهذا مما يكبح جماح بعض الأفراد من السلطة التنفيذية ، ويزيد فى توفير الأمن للمواطنين . .

فلماذا الخروج على الأمن ـ إذا ـ وإفساد الحياة على المجتمع بما تفعلون ؟ أليس قتلكم للناس دون مايبيح قتلهم شرعا محاربة لله ورسوله ونظامه وشريعته وافساداً فى الأرض ؟

أليس الاعتداء على أموالهم وتحريق دورهم ومحلاتهم كذلك حربا لشريعة الله وإفسادا فى الأرض ؟

وهل أنتم بما ترتكبون من هذا كله منفذون لشريعة الله أو خارجون عليها تستحقون أن تطاردكم الدولة والمجتمع ؟

هل أنتم بذلك مسلمون أو محاربون لله ورسوله مفسدون فى الأرض ؟

وهل يكون من المستساغ شرعا مع هذا أن تطلقوا على أنفسكم أو يطلق الناس عليكم : أنكم إسلاميون تعملون

لإقرار شريعة الله ؟ كيف ؟ وهذا هو عملكم وسلوككم ؟

إننى أكتب هذا لأضعه أمامكم لتفكروا بعمق ، وفى هدوء ، بعيدا عن العصبية وطيش الشباب ، فأنتم أبنائى ولا أريد إلا خيركم وخير الوطن ، وإنه لعزيز على نفسى أن تفهموا الإسلام وواجباته فهما خاطئا يعكر عليكم وعلى من حولكم صفو الحياة لأسباب غير مقبولة لا عند الله ولا عند عقلاء الناس .

وليس العلماء الفقهاء فى دينهم أقل منكم وممن تقولون عنهم إنهم أمراؤكم علما وفقها وإخلاصا لدين الله . .

وليست البقية الصالحة من رجال الإخوان الذين تربوا وعقلوا دينهم على يد المرحوم الداعية الكبير الشيخ حسن البنا ، ليسوا أقل منكم ومن أمرائكم علما وخبرة وحنكة فى الحياة . .

والمفروض فيكم أن تستفيدوا بعلم هؤلاء جميعا و[illegible] خبرتهم ، وأن تقرءوا لهم وتستمعوا ، لا أن تسدوا آذانكم ، وتديروا ظهوركم لهم . .

فخذوا العلم على أعلامه :. واطلبوا الحكمة عند الحكماء ولا تجنوا على أنفسكم وأهليكم ومجتمعكم . .

تمسكوا بدينكم واتقوا الله ما استطعتم ، وادعوا إلى الله

بالحكمة والموعظة الحسنة ، وادرسوا جيدا قول الله لرسوله عليه الصلاة والسلام : «ولو كنتَ فَظًّا غَلِيظ القلب لا نْفَضّوا من حولك» .

«إن أريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ ، وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيب» . .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير الدعاة الهداة المرشدين ،.

د. عبد المنعم النمر

الفهرس

صفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٦١٤ / ١٩٩٣

I.S.B.N -01-3504-6

إن كتب التراث عندنا حوت كثيراً من الآراء : المعتدلة والمتطرفة ، وفيها الكثير أيضاً من الآراء والأقوال الشاذة الخارجة عن جادة الحق والصواب ، وتاريخ الفكر الإسلامى حافل برجال لهم أفكار وأقوال تحمل طابعهم ونواياهم ، الحسنة منها والسيئة ، المخلصة منها والمغرضة ، والقارىء الفطن لهذه الكتب يستطيع أن يميز بين الخبيث والطيب ، لو كان إنساناً معتدل الدين والفكر.

١٩٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب